أَرِيجُ الأَزْهَارِ النَّضِرَةِ
فِي شَرْحِ القَوَاعِدِ الأَرْبَعَةِ

لشيخ الإسلام
محمد بن عبد الوهاب
(١١١٥-١٢٠٦هـ)

شرح الفقير إلى عفو ربه الغني:
أبي زياد محمد بن سعيد البحيري
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمؤمنين

أَرِيجُ الأَزْهَارِ النَّضِرَة

فِي شَرْحِ القَوَاعِدِ الأَرْبَعَة

لشيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب

(١١١٥-١٢٠٦هـ)

شرح

أبي زياد محمد بن سعيد البحيري

عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عنه- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**». رواه الجماعة.

وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». أخرجه أحمد وابن أبي شيبة ومن طريقه أبو داود بإسناد صحيح.

وعرف الجنة: ريحها.

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةٌ

الْحَمْدُ لِلَّهِ ذِي العِزَّةِ والجَبَرُوتِ، والمُلْكِ والمَلَكُوتِ، الهَادِي عِبَادَه المُؤْمِنِينَ إلى الإيمَانِ بِهِ والكُفْرِ بالطَّاغُوتِ، القَائِلِ -جَلَّ شَأْنُهُ-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وَأَشْهَدُ أَلَّا إلهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، أَمَرَ عِبَادَهُ بالتوحيد، ونَهَاهُمْ عَنِ الشِّرْكِ والتَّنْدِيدِ، وأَرْسَلَ إليهم رُسَلَهُ لإِخْرَاجِهِمْ من عِبَادَةِ العَبِيدِ إلى عِبَادَةِ رَبِّ العَبِيدِ، وَصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيَّهِ مُحَمَّدٍ المُبَشِّرِ بالرَّحْمَةِ، الدَّاعِي إلى اللهِ بالمَوْعِظَةِ الحسنة والحِكْمَةِ، وعلى آله المُطَهَّرِينَ، وصَحْبِهِ الشَّادِينَ ذَوِي الكِيَاسَةِ والدِّين.

أما بعد

فتوحيد الله هو الغاية التي لها خلق الله الثقلين، ولأجله أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وخلق الجنة والنار، ووضع الموازين، فَمَنْ حَقَّقَهُ فهو السعيد الفائز، ومن أتى بضده فهو الشقي الخاسر، كما قال -سبحانه-: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود:١٠٥]، وكل دعوة تقوم على غير التوحيد والاتباع فهي دعوة فاسدة، لا يَنتفع الناسُ بها، ولا تنفع هي الناسَ، بل لم يزدد الناس بها عن ربهم إلا بُعْدا، فإنا قد علمنا من نصوص الكتاب والسنة أن السعادة في الدارين هي في تحقيق توحيد الله -جل وعلا- واتباع نبيه ﷺ، والشقاء في الإشراك به، والإعراض عن سنة نبيه ﷺ، كما قال -سبحانه-: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ

أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧]، وقال -سبحانه-: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الرعد:٢٨، ٢٩].

قال أبو العباس ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" (٢٥/١٥):

"وَمَنْ تَدَبَّرَ أَحْوَالَ الْعَالَمِ وَجَدَ كُلَّ صَلَاحٍ فِي الْأَرْضِ فَسَبَبُهُ تَوْحِيدُ اللَّهِ وَعِبَادَتُهُ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ ﷺ، وَكُلُّ شَرٍّ فِي الْعَالَمِ وَفِتْنَةٍ وَبَلَاءٍ وَقَحْطٍ وَتَسْلِيطِ عَدُوٍّ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ فَسَبَبُهُ مُخَالَفَةُ الرَّسُولِ ﷺ وَالدَّعْوَةُ إلَى غَيْرِ اللَّهِ. وَمَنْ تَدَبَّرَ هَذَا حَقَّ التَّدَبُّرِ وَجَدَ هَذَا الْأَمْرَ كَذَلِكَ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ وَفِي غَيْرِهِ عُمُومًا وَخُصُوصًا وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ".

وقد قضى الله -جل وعلا- أن يكون للرسل أعداءٌ يقفون لهم في كل سبيل، ينافحون عن الباطل بشتى السبل المُعْلَنَةِ والخَفِيَّة، يدافعون عن الشرك وأهله، ويحاربون التوحيدَ وأهلَه، هم جنود إبليس الأوفياء، وأعوانه الخبثاء، كما قال -جل شأنه-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان:٣١]، وقال -سبحانه-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام:١١٢].

فما دَعَا أحدٌ لمثل ما دَعَا إليه النبيون إلا عُودِيَ، وناله من الأذى بقدر ما عنده من دين، ومن هؤلاء الدعاة المصلحين شيخ الإسلام، ومجدد الدين محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي رحمه الله، وجعل الجنة مثواه، فقد ناله نصيب كبير من الأذى، فصبر عليه رحمه الله، وجاهد بجميع أنواع الجهاد؛ جاهد بجسده، ولسانه، وقلمه، وله في الدعوة إلى التوحيد والاتباع مؤلفات عديدة، وتصانيف كثيرة مفيدة، وقد كتب الله لمؤلفاته القبول، نحسبه -والله حسيبه- كان مخلصا صادقا، ومن هذه المؤلفات رسالة "**القواعد الأربع**"، ذكر فيها الإمام أربعَ قواعد دلت عليها نصوص الكتاب، يَعْرِفُ بهن الرجلُ شهادةَ أن لا إله إلا الله، ويميز بها بين المسلمين والمشركين، وهي -كما وصفها- عظيمة النفع، انكب العلماء على شرحها، وقد طلب مني بعض الأصدقاء أن أضع عليها شرحا يفي بالمقصود، فأخبرته أن هناك شرحا صوتيا لي عليها، فطمع في تفريغه، فلم أجد بُدًّا من جوابه، وسميته بـ "**أَرِيجِ الأَزْهَارِ النَّضِرَةِ فِي شَرْحِ القَوَاعِدِ الأَرْبَعَةِ**".

فاللهَ أسألُ أن يتقبل مني، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يحسن ختامنا، إنه ولي ذلك ومولاه.

أبو زياد

محمد بن سعيد البحيري

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمؤمنين

متن القواعد الأربع

رسالة القواعد الأربع

حدثني وأخبرني جماعة من الشيوخ بأسانيدهم المذكورة في ثبتي "المنح الوفية في الأسانيد البحيرية" عن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- أنه قال:

بسم الله الرحمن الرحيم [1]

أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يتولاك في الدنيا والآخرة، وأن يجعلك مباركًا أينما كنت، وأن يجعلك ممن إذا أُعْطِيَ شكر، وإذا ابْتُلِـيَ صبر، وإذا أذنب استغفر، فإن هؤلاء [2] الثلاث عنوان السعادة.

اِعْلَمْ -أرشدك الله لطاعته- أن الحَنِيفِيَّةَ ملةَ إبراهيمَ أنْ تعبدَ اللهَ وحده مخلصًا له الدين، وبذلك أمر الله جميع الناس، وخلقهم لها، كما قال -تعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، فإذا عرفتَ أن الله خلقك لعبادته فاعلم أن العبادة لا تُسَمَّى عبادةً إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تُسَمَّى صلاةً إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشركُ في العبادة فسدتْ كالحدث إذا دَخَلَ في الطهارة، كما قال -تعالى-: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [التوبة:١٧].

---

[1]- المتن مطبوع ضمن "مؤلفات الشيخ الإمام" (١٩٩/١) مع زيادات زدتها عليه.

[2]- في "الدرر السنية" (٢٠/٣): "هذه".

فإذا عَرَفْتَ أن الشركَ إذا خَالَطَ العبادةَ أفسدها وأحبط العملَ وصار صاحبُه من الخالدين في النار عرفتَ: أَنَّ أَهَمَّ ما عليك معرفُة ذلك، لعل الله أن يخلصك من هذه الشبكة، وهي الشرك بالله، "[3] الذي قال الله -تعالى- فيه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]"، وذلك بمعرفة أربعِ قواعدَ ذكرها الله -تعالى- في كتابه:

القاعدة الأولى:

أن "تعلم" [4] أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مُقِرُّونَ بأن الله -تعالى- هو الخالقُ المُدَبِّـرُ [5]، وأنَّ ذلك لم يُدْخِلْهُمْ في الإسلام، والدليل قوله -تعالى-: ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٣١].

---

[3] - زيادة من "مؤلفات الشيخ الإمام" (١/١٩٩).

[4]- زيادة من "مؤلفات الشيخ الإمام" (١/٢٠٠).

[5]- في "الدرر" (٣/ص٢١) "هو الخالق، الرازق، المحيي المميت، المدبر لجميع الأمور ولم يدخلهم ذلك في الإسلام".

القاعدة الثانية:

أنهم يقولون: ما دعوناهم وتوجهنا إليهم إلا لطلب القربة والشفاعة[٦].

فدليل القربة قوله -تعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزُّمَر:٣].

ودليل الشفاعة قوله -تعالى-: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [يونس:١٨].

والشفاعة شفاعتان: شفاعة منفية، وشفاعة مُثْبَتة.

فالشفاعة المنفية: ما[٧] كانت تُطْلَبُ من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، والدليل قوله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

---

[٦]- زيادة في "الدرر" "ونريد من الله لا منهم، لكن بشفاعتهم، والتقرب إلى الله بهم".

[٧]- في "الدرر" " هي التي تطلب.. ".

والشفاعة المُثْبَتَةُ: هي التي تُطْلَبُ من الله [٨]، والشَّافِعُ مُكْرَمٌ بالشفاعة، والمَشْفُوعُ له مَنْ رَضِيَ اللهُ قولَه وعملَه بعد الإذن؛ كما قال -تعالى-: ﴿**مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ**﴾ [البقرة:٢٥٥] [٩].

القاعدة الثالثة:

أن النبي ﷺ ظَهَرَ على أناس متفرقين في عبادتهم، منهم مَنْ يَعْبُدُ الملائكةَ [١٠]، ومنهم مَنْ يَعْبُدُ الأنبياءَ والصالحين، ومنهم مَنْ يَعْبُدُ الأشجارَ والأحجارَ، ومنهم مَنْ يَعْبُدُ الشمسَ والقمرَ، وقاتلهم رسولُ الله ﷺ ولم يُفَرِّقْ بينهم، والدليل قوله -تعالى-: ﴿**وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ**﴾ [الأنفال:٣٩].

فدليل الشمس والقمر قوله -تعالى-: ﴿**وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ**﴾ [فُصِّلَت:٣٧].

---

[٨]- زيادة في "الدرر" "**فيما لا يقدر عليه إلا الله**".

[٩]- في "الدرر" " والدليل قوله -تعالى-: (**الله لا إله إلا هو الحي القيوم ... إلخ**"

[١٠] - في "الدرر" قَدَّمَ الشمسَ والقمر على الملائكة، فقال: "**منهم من يعبد الشمس والقمر؛ ومنهم من يعبد الملائكة..**"

ودليل الملائكة [11] قوله -تعالى-: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًا﴾ [آل عمران:٨٠].

ودليل الأنبياء قوله -تعالى-: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [المائدة:١١٦]. [12]

ودليل الصالحين قوله -تعالى-: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء:٥٧]. [13]

ودليل الأشجار والأحجار قوله -تعالى-: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ۝٢٠﴾ [النجم]، وحديث أبي واقد الليثي -رضي الله عنه- قال:

---

[11]- في "الدرر" قال: " ودليل الملائكة، قوله -تعالى-: **(ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون، قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون)** [سبأ: ٤٠ - ٤١].

[12] - في "الدرر" وقف إلى قوله -تعالى-: **(فقد علمته)** ثم ذكر بعدها قوله -تعالى-: **(ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا)**.

[13]- قال في "الدرر" ودليل الصالحين قوله -تعالى-: **(قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا)** [الإسراء: ٥٦].

«خرجنا مع النبي ﷺ إلي حُنَيْنٍ ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سِدْرَةٌ يعكفون عندها وينوطون بها أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ... الحديث». [14]

القاعدة الرابعة:

أنَّ مشركي زماننا أغلظُ شِرْكًا من الأولين؛ لأن الأولين يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة، ومشركو زماننا شركهم دائمًا [15] في الرخاء والشدة، والدليل قوله -تعالى-: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٥]. [16]

والله سبحانه أعلم، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم [17].

---

[14]- في "الدرر" أكمل الحديث.

[15]- قال في "الدرر": "**لأن الأولين يخلصون لله في الشدة، ويشركون في الرخاء؛ ومشركي زماننا: شركهم دائم، في الرخاء والشدة**".

[16] - زاد في "الدرر" "فعلى هذا: الداعي عابد؛ والدليل قوله تعالى: (**ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون**) [الأحقاف: ٥] والله سبحانه أعلم، وصلى الله على محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

[17] - للشيخ خمس رسائل تُسمى بالقواعد الأربع كلها مطبوع في "**الدرر السنية**"، وهي ما بين مطولة ومختصرة ومتوسطة، فالأولى المطولة (٢/٥) قال في مطلعها: "**أربعة قواعد يتميز بها المسلم من المشرك.... إلى أن قال: أما بعد: فقد طلب مني بعض الأصدقاء الذين لا تنبغي مخالفتهم، أن أجمع مؤلفا يشتمل على مسائل أربع**".
والثانية هي المتوسطة، وهي التي عليها أكثر الشروحات، وهي التي قمت بشرحها في هذا الكتاب.

مبادئ علم الاعتقاد

قال مقيده -عفا الله عنه-:

إنَّ الْمَبَادِي فَاعْرِفَنَّ عَشَـرَهْ *** حَدًّا وَمَوْضُوعًا خُذَنْ فثَمَرَهْ
حُكْمٌ مَسَائِلٌ وَوَضْعٌ اسْتُمِدّْ *** اِسْمٌ وَنِسْبَةٌ وَفَضْلًا اعْتَمِدْ

أولا: حده.

الاعتقاد لغة: مصدر «**اعتقد يعتقد اعتقادا**» من اعْتَقَدَ القلبُ إذا صَلُبَ، ويتعدى إلى مفعوله فيقال: اعتقد الشيءَ: إذا اقتناه واتخذه وأحكم قلبَه عليه، وهو مما يدل فيه افتعل على الاتخاذ، **ومَرَدُّ العَقْدِ**: إلى الشَّدِّ والرَّبْطِ، من «**عَقَدَ يَعْقِدُ عَقْدًا**»، وربما جاء اعْتَقَدَهُ كـ عَقَدَهُ؛ **كما قال جرير**:

أَسِيلَةُ مَعْقِدِ السِّمْطَيْـنِ مِنْهَا *** وَرَيَّا حَيْثُ تَعْتَقِدُ الحِقَابَا

وشرعا: الإيمان بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، والْقَدَرِ خَيْـرِهِ وَشَـرِّهِ.

ثانيا: موضوع علم الاعتقاد.

الإسلام والإيمان والإحسان وما يتبع ذلك.

والثالثة مختصرة قال في مطلعها (٢/٢٧): " **أما بعد: فهذه أربع قواعد ذكرها الله في محكم كتابه، يعرف بها الرجل شهادة أن لا إله إلا الله، ويميز بها بين المسلمين والمشركين؛ فتدبرها، يرحمك الله؛ وأصغ إليها فهمك؛ فإنها عظيمة النفع**".

والرابعة مختصرة أيضا في مطلعها (٢/٣١): " **الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيد المرسلين، وإمام المتقين؛ سألت" رحمك الله" أن أكتب لك كلاما، ينفعك الله به..... إلى أن قال: " فإذا عرفت هذا، فعليك" رحمك الله" بمعرفة أربع قواعد.....**".

والخامسة قال في مطلعها (٢/٣٣): " **هذه أربع قواعد من قواعد الدين؛ يميز بهن المسلم بين مذهب المسلمين من مذهب المشركين**".

ثالثا: ثمرته.

مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبتحقيق التوحيد والاتباع يسعد العبد في الدارين، وينجو من أهوال يوم القيامة.

رابعا: نسبته.

أصل العلوم الشرعية، ونسبته إلى غيره من العلوم التباين.

خامسا: فضله.

لعلم الاعتقاد مباحث متعددة، على رأسها توحيد الرب جل وعلا، وهو موضوع هذه الرسالة، فمن فضائل علم التوحيد:

الأول: أنه أشرف العلوم؛ لقوله -تعالى-: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩]، وشرف العلم من شرف المعلوم.

الثاني: أن التوحيد هو الغاية التي من أجلها خلق الله الجن والإنس؛ لقوله -تعالى-: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦].

الثالث: أنه أول فرض على العبيد، فأول فرض على العبد أن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله، كما قال -تعالى-: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ ﴾ [البقرة:٢٦٥]، وقوله -تعالى-: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]، ويدل على ذلك حديث معاذ

حين أرسله النبي ﷺ إلى اليمن وفيه أنه قال له: «**إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ......... الحديث**" متفق عليه واللفظ للبخاري.

ولهما في رواية أخرى قال ﷺ: "**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**".

الرابع: أنه ما من نبي إلا وأُرسل بالتوحيد، لقوله -تعالى-: ﴿**يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ**﴾ [النحل:٢]، وقوله -تعالى-: ﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء:٢٥].

الخامس: أنَّ مَنْ حقق التوحيد دخل الجنة؛ لقوله -تعالى- ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام:٨٢]، ولقول النبي ﷺ: «**فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ**». متفق عليه.

السادس: أنَّ مَنْ حقق التوحيد قُبِلَتْ منه عبادتُه، لقوله -تعالى-: ﴿**وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ**﴾ [الزُّمَر:٦٥].

سادسا: واضعه.

أول من وضع فيه كتابا مستقلا -فيما أعلم- هو أبو عُبَيْدٍ القَاسِمُ بنُ سَلَّامٍ في كتاب سماه "**الإيمان**"، أما كتابُ الفقه الأكبر المنسوبُ لأبي حنيفة فمكذوب عليه، غير أنَّ فيه مباحث مخالفة لمنهج أهل السنة والجماعة كالإرجاء، وبعض مباحث الصفات، وغير ذلك.

سابعا: اسمه.

علم الاعتقاد، وعلم التوحيد، وعلم الشريعة، وعلم الإيمان، وعلم العقيدة، والسنة، وأصول الدين، والفقه الأكبر، وعلم العقائد.

ويسمى عند المبتدعة من الأشاعرة والمعتزلة والماتريدية، والجهمية، والكلابية "بعلم الكلام"، وربما سماه بعضهم "بالفلسفة" أو "أصول الدين" أو "علم العقائد".

ثامنا: استمداده.

من الكتاب والسنة.

تاسعا: حكم تعلمه.

فرضُ عين على كل فرد من الثقلين الجن والإنس.

مسائله:

منها: «**معرفة التوحيد، وما يضاده من الشرك، ومعرفة الإسلام، والإيمان وشعبه، وأقسامه**» إلى غير ذلك مما سيأتيك.

شرح

مقدمة الشيخ

شرح مقدمة الشيخ

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله-:

بسم الله الرحمن الرحيم

أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يتولاك في الدنيا والآخرة، وأن يجعلك مباركًا أينما كنت، وأن يجعلك ممن إذا أُعْطِيَ شكر، وإذا ابْتُلِيَ صبر، وإذا أذنب استغفر، فإن هؤلاء الثلاث عنوان السعادة.

اِعْلَمْ -أرشدك الله لطاعته- أن الحَنِيفِيَّةَ ملةَ إبراهيمَ أنْ تعبدَ اللهَ وحده مخلصًا له الدين، وبذلك أمر الله جميع الناس، وخلقهم لها، كما قال -تعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، فإذا عرفتَ أن الله خلقك لعبادته فاعلم أن العبادة لا تُسَمَّى عبادةً إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تُسَمَّى صلاةً إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشركُ في العبادة فسدتْ كالحدث إذا دَخَلَ في الطهارة، كما قال -تعالى-: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ﴾ [التوبة:١٧].

فإذا عَرَفْتَ أن الشركَ إذا خَالَطَ العبادةَ أفسدها وأحبط العملَ وصار صاحبُه من الخالدين في النار عرفتَ: أَنَّ أَهَمَّ ما عليك معرفُة ذلك، لعل الله أن يخلصك من هذه الشبكة، وهي الشرك بالله، " الذي قال الله -تعالى- فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]"، وذلك بمعرفة أربعِ قواعدَ ذكرها الله -تعالى- في كتابه.

الشرح

قوله: «بسم الله الرحمن الرحيم»

بدأ -رحمه الله- بالبَسْمَلَةِ لعدة أمور:

أولا: أسوةً بكتاب الله جل وعلا.

ثانيا: أسوةً بسنة النبي ﷺ القولية؛ إذ أخرج مسلم (ح٤٧٣٢)، وأحمد (ح١٣٨٢٧)، وغيرهما عَنْ أَنَسٍ أَنَّ قُرَيْشًا صَالَحُوا النَّبِيَّ ﷺ فِيهِمْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَلِيٍّ: «**اكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ... الحديث**».

ثالثا: أسوةً بسنة النبي ﷺ الفعلية؛ حيث كان النبي ﷺ يفتتح رسائله بالبسملة كما عند البخاري (١/١٢) من حديث هِرَقْلَ.

رابعا: هي من سنن الأنبياء؛ كما قال سليمان -عليه السلام-: ﴿**إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ**﴾ [النمل:٣٠].

خامسا: للاستعانة بالله -جل وعلا-، وذلك على القول بأن الباء للاستعانة.

فالمَعْنَى: بسم الله الرحمن الرحيم أَكْتُبُ، فقدرنا المُتَعَلَّقَ فِعْلًا مُتَأَخِّرًا مُنَاسِبًا للمَقَامِ، وتقدير المُتَعَلَّقِ محذوفا في هذا المقام واجب، وهو عند البيانيين من مجاز الحذف.

فكونه فِعْلًا فلأن الأصل في العمل يكون للأفعال، على خلاف بينهم في تقديره ليس هذا مَحَلُّ بَسْطِهِ، وقد بسطت القول فيه في شرحي على "**قواعد الإعراب**"، وكونُنا قدرناه متأخرا حتى يكون البدء باسم الله، وهذا يفيد الحصر والاهتمام، ولو قدرناه متقدِّما لجاز أيضا، لكنَّ الأول أبلغ؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

والحصر: إِثْبَاتُ الحكم في المذكور ونَفْيُهُ عما عداه، **فإذا قلت**: «**بسم الله أكتبُ**» **أي**: بسم الله لا باسم غيره، ففيه حصر الاستعانة بالله وحده، ونفي ذلك عن غير الله، **واسم**: مفرد مضاف إلى أعرف المعارف وهو اسم الجلالة فعم جميع الأسماء، **فصار المعنى**: بكل اسم لله أستعين على الكتابة لا باسم غيره.

والاهتمام: أن يتقدم اسم الجلالة على غيره، فلا يتقدم عليه شيء؛ وذلك مراعاة للاستعانة به سبحانه، وهو المناسب في هذا الموضع.

وقد يتقدم المُتَعَلَّقُ في بعض المواضع لمراعاة معنى آخر، كما في قوله -تعالى- ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق:١]، ففي هذا الموضع تَقَدَّمَ المُتَعَلَّقُ لمراعاة جانب القراءة، وهو المُهِمُّ في هذا الموضع، **كما قال السيوطي في** "عُقُودِ الجُمَانِ":

وقد يُفيد في الجميع الاهْتِمَامْ *** به ومِنْ ثَمَّ الصَّوَابُ في المَقَامْ

تقديرُ ما عُلِّقَ باسم اللهِ بِهْ *** مُؤَخَّرًا فإن يَرِدْ بِسَبَبِهْ

تقديمُه في سورة اقرأ فهُنا *** كان القراءةُ الأهمَّ المُعْتَنَى

وقدرناه مناسبا للمقام حتى إذا قدمتَه للقراءة يكون التقدير: «**باسم الله أقرأ**»، وإذا قدمتَه للأكل يكون التقدير: «**باسم الله آكل**»، ولو قدرناه عامًّا لَمَا أفاد هذه الفائدة، مثلا لو قدرناه «**أَبْدَأُ**» لَمَا عُلِمَ بأي شيء تَبْدَأُ.

ومن البلاغة في البسملة أيضا الإِيجَازُ بإضافة العام للخاص في قوله -تعالى-: ﴿**بسم الله**﴾ ويُسَمَّى عند البيانيين «**إِيجَازَ قَصْرٍ**».

والاسم: عند البصريين مشتق من «**السُّمُوِّ**»، وهو «**العُلُوُّ**»، من «**سَمَا الشيءَ يَسْمُوه سُمُوًّا**»، وأصله «**سِمْوٌ**»، حُذِفَ حرف العلة الواو المتطرفة فنُقل الإعراب على الميم قبلها بحيث نزلت منزلة الواو فصارت محل الإعراب، ثم دخلت عليه همزة الوصل في أوله، ودليل ذلك شيئان:

الأول: أن فيه لغة "**سِمٌ**".

الثاني: تصريفه؛ إذ يُجمع على «**أَسْمَاءٍ**» الذي هو في الأصل «**أَسْمَاو**» فهو وَاوِيٌّ مُعْتَلٌ، وعلى «**أَسَامِو**»، التي أصبحت بعد القلب «**أَسَامِيَ**»، ويُصغر على «**سُمَيٍّ**».

أما حذف همزة الوصل من "**بِاسْمِ**" في البسملة فلعدم ذكر المُتَعَلَّقِ.

واسم الجلالة «**اللَّهُ**» مشتقٌّ، ومعنى كونه مشتقا أنه دَالٌّ على صفة الإلهية له -سبحانه وتعالى- خلافا لمن زعم أنه جامد، وأصل اشتقاقه «**إِلَاهٌ**» على وزن «**فِعَالٍ**»، فحُذفت الهمزة وعُوض عنها بأل، وهو ما نَقله سِيبَوَيْهِ عَنِ الْخَلِيلِ، وقيل: أصله "**لَاه**" ثم دخلت عليه الهمزة، **وقَالَ الْكِسَائِيُّ وَالْفَرَّاءُ**: أَصْلُهُ «**الْإِلَاهُ**»، حَذَفُوا الْهَمْزَةَ وَأَدْغَمُوا اللَّامَ الْأُولَى فِي الثَّانِيَةِ فصارتا لاما مشدَّدة.

والدليل على كونه مُشْتَقًّا قوله -تعالى-: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:٣]، فلما ورد في قوله -تعالى-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزُّخْرُف:٨٤] علمنا أنه مشتق، لِتَعَلُّقِ الجار والمجرور به، **قال رُؤْبَةُ**:

لِلَّهِ دَرُّ الْغَانِيَاتِ الْمُدَّهِ *** سَبَّحْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ مِنْ تَأَلُّهِي

والإِلَهُ: هو الذي تَأْلَهُهُ القلوب وتحبُّه، وهو "**فِعَالٌ**" بمعنى "**مفعول**"، أي: "**مَأْلُوهٌ**" بمعنى: "**معبود**"، من «**أَلَهَ، يَأْلَهُ إلاهَةً، وأُلُوهَةً، وألُوهِيَّةً**»، وسُمِعَ «**أَلِهَ**» بالكسر بمعنى تَحَيَّـرَ، وليس هو من هذا الباب؛ لأن الهمزة فيه منقلبة عن واو.

ومَرَدُّ هذه المادة إلى التَّعَبُّدِ، كما قال ابن فارس، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ مَعْبُودٌ -جل جلاله-، **وَيُقَالُ**: تَأَلَّهَ الرَّجُلُ: إِذَا تَعَبَّدَ.

وقد اشتمل اسم الجلالة على أنواع التوحيد الثلاثة، **فالإله**: هو المعبود، وهذا يستلزم كونَه رَبًّا خالقا رازقا مدبرا مُحْيِيًا مميتا، وهو كذلك يجمع جميعَ معاني الأسماء والصفات، ولذلك تُضاف إليه جميع الأسماء ولا يُضاف هو إليها.

الرحمانِ الرحيمِ: اسمان من أسماء الله الحسنى، وهما نعتان لاسم الجلالة "**الله**"، ولك في إعرابهما تسعة أوجه من رفع ونصب وجر، إلا أنك إن نصبتَ الرحمان أو رفعتَه لم يجز لك أن تجر الرحيم، **كما قال النور الأجهوري**:

إِنْ يُنْصَبِ الرَّحْمَنُ أَوْ يَرْتَفِعَا *** فَالْجَرُّ فِي الرَّحِيمِ قَطْعًا مُنِعَا

وفي إعراب البسملة أوجه كثيرة، أوصلها بعض النحاة كالخضري في "حاشيته على شرح ابن عقيل" إلى "**تسعة وسبعين وجها بعد المئتين !!**"، ولا يُسَلَّمُ له في بعضها كما بينته في "حاشيتي على شرح ابن عقيل".

والرَّحْمَان: على وزن "**فَعْلَانَ**"، وهي من صِيغ المبالغة، كَعَطْشَانَ وغَرْثَانَ.

والرَّحِيمُ: على وزن "**فَعِيلٍ**"، من الدلالة على المبالغة أيضا.

فكل من الرحمان والرحيم للمبالغة، لكنَّ لفظ "**رحمان**" أبلغ من لفظ "**رحيم**"، لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالبا؛ فالرحمن يَعُمُّ برحمته جميع خلقه، أما الرحيم فرحمته خاصة بالمؤمنين؛ ولذلك قال -تعالى-: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

قال ابن كثير في "تفسيره" (٣٣/١):

"وَرَحْمَنُ أَشَدُّ مُبَالَغَةً مِنْ رَحِيمٍ، وفي كلام ابن جرير ما يُفهم منه حِكَايَةُ الِاتِّفَاقِ عَلَى هَذَا، وَفِي تَفْسِيرِ بَعْضِ السَّلَفِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ".

ومن الفرق بينهما أن "**الرحمان**" لا يُطلق إلا عَلَى الله، أما "**الرحيم**" فقد يُطلق على غير الله، كما قال الله عن نبيه ﷺ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

ولابن القيم -رحمه الله- توجيه جيد؛ إذ قال في "بدائع الفوائد" (٢٨/١):

"وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما، وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثاني للفعل.

فالأول دال أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردْتَّ فهم هذا فتأمل قوله: ﴿**وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**﴾، ﴿**إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾، ولم يَجِئْ قط رحمن بهم، فعلم أن الرحمن هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته، وهذه نُكتة لا تكاد تجدها في كتاب وإن تَنَفَّسَتْ عندها مِرآة قلبك لم تنجل لك صورتها".

وكل الرحمان والرحيم مشتق من الرحمة، **والرَّحْمَةُ في اللغة**: «**الرِّقَّةُ والتَّعَطُّفُ**». وهي مفرد «**رَحَمَاتٍ**» بتحريك الثلاث، «**ورَحْـمَـاتٍ**» أيضا بإسكان الحاء، مِن «**رَحِمَ، يَرْحَمُ، رَحْـمَةً وَرُحْـمًـا، فهو رَاحِمٌ، ومَرْحُومٌ**».

والرَّحْمَةُ: صفةُ كمالٍ تَليق بالله-جل جلاله-، وتفسيرُ الرحمةِ بإرادة المغفرة، أو الثواب، أو الإنعام، والإكرام، أو النعمة كما تقول الأشاعرة تحريفٌ لصفة الرحمة عن معناها، فأهل السنة والجمـاعة يُثبتون لله-جل وعلا-صفة الرحمة على الوجه اللائق بالله-جل جلاله-، ولا يحرفون الصفات عن معناها، فالله-جل وعلا-له رحمة يرحم بها، وهو رحيم، ورحمان، ورحمته وَسِعَتْ كلَّ شيء، ليست كرحمة المخلوقين؛ لأنَّ الله-جل جلاله-ليس كمثله شيء، وأهل السنة والجماعة يثبتون أيضا آثارَ تلك الرحمة، **فيقولون**: إرادة الإحسان والإحسان والإنعام من آثار تلك الرحمة، **كما يقولون**: هي رحمة من الله لمن يستحقها، كما قال -تعالى-: ﴿ **يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ** ﴾ [العنكبوت:٢١].

وقوله: «أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يتولاك في الدنيا والآخرة

افتتح الشيخ رسالته بدعاء كما هي عادته، وهو دعاء من الشيخ لطلاب العلم ولكل من قرأ رسالته بأن يتولاهم الله في الدارين، وهو مما يدل على رقة قلبه وحبه للمسلمين عامة، ولطلاب العلم خاصة، وأنه يحب لغيره ما يحب لنفسه من الهداية والنجاة، فينبغي للدعاة إلى الله أن يكونوا رحماء بالناس، وليكن لهم في رسول الله أسوةٌ حسنة، فقد كان النبي ﷺ رحيما بهم؛ إذ قال الله عن نبيه ﷺ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]، بل ما أرسله الله إلا رحمة للعالمين، كما قال -سبحانه-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

والسؤال في اللغة له معان: منها: "**الطلب، والدعاء**"، وهو في كلام الشيخ يحتمل المعنيين، **يقال**: "**سأله**" أي: طلب منه، وسأله: "**دعاه**"، ومنه حديث: " **كَانَ إِذَا سَأَلَ جَعَلَ بَاطِنَ كَفَّيْهِ إِلَيْهِ**" أي: دعاء، أخرجه أحمد بإسناد ضعيف.

والتوسل المشروع إلى الله -جل وعلا- أن يكون بأسمائه، أو صفاته، أو بعمل صالح، أو بدعاء رجل صالح حي قادر، وقد توسل المؤلف إلى الله باسمه الكريم، وبأنه -جل وعلا- ربُّ العرشِ الموصوفِ بصفة العظمة.

والكَـرِيمُ: اسم من أسماء الله متضمنٌ صفةَ الكرم، والله -جل وعلا- لم يزل كريما، فالكرم صفة ذات بمعنى وصفه -سبحانه- بجميع المحامد، ونفيِ النقائص، وصفةُ فعلٍ باعتبار ما يصل إلى الخلق من كرمه، كما قال -سبحانه-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦]، وهو «**كثير الخير الجَوَادُ المُعطِي بغير طلب**»، فهو كريم -سبحانه- على عباده وإن لم يطلبوا منه، **وكَرِيمٌ**: على وزن «**فَعِيلٍ**»، صفة مُشَبَّهَةٌ تَدُلُ على الثبوت من «**كَرُمَ، يَكْرُمُ، كَرَمًا وكَرَامَةً، فهو كَرِيمٌ**».

والرَّبُّ: هو المُرَبِّـي المُتَصَرِّفُ المَالك المُصْلِحُ للشيء، **والرب**: اسم من أسماء الله -جل وعلا-، كما قال النبي ﷺ: «**فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ**»، ولا يقال إلا لله -جل وعلا- إذا قُطِعَ عن الإضافة.

والعرش لغة كما قال الخليل: سَرِيرُ المَلِكِ، كما قال -تعالى- عن يوسف: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف:١٠٠]، وعن سبإ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣]، ومرد مادة "عرش" في اللغة إلى الارتفاع، ولذلك سمي العرش عرشا لارتفاعه.

وعرش الرب -جل وعلا- ذو قوائم كما قال النبي ﷺ: «**فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ**» أخرجه البخاري، وقد خصه الله بالاستواء عليه، كما قال -سبحانه-: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]. **أي**: علا عليه، ولذلك تَعَدَّى الفعلُ استوى بـ (على)، وقد قدَّم الجار والمجرور عليه لإفادة الحصر والقصر، **أي**: استوى على العرش لا على غيره، فعُلُوُّ الله -جل وعلا- على عرشه لا يشبه عُلُوَّ المخلوقين، فالاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وقد وردت صفة الاستواء في سبع آيات يحرفها عن معناها أهلُ البدع والأهواء من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، أما أهل السنة والجماعة فيثبتون لله -جل وعلا- ما أثبته لنفسه، من غير تحريف، أو تعطيل، أو تمثيل، أو تكييف.

وقد وصف الله -جل وعلا- عرشَهُ بأوصاف كثيرة، منها أنه عظيم، فهو أعظم مخلوقات الله، ولذلك وصفه الله بأنه عظيم في ثلاث آيات، كما قال -تعالى-: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [النمل:٢٦]، وقال -تعالى-: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩]، وقال -تعالى-: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون:٨٦].

وقوله: «أن يتولاك».

أي: أسأل ألا يكلك إلى نفسك، وأن يكون محبا ونصيرا ومعينا لك في الدنيا والآخرة، ومن كان الله مُتَوَلِّيَه أحبه وأعانه وسدده وهداه إلى التوحيد والاتباع، وأخرجه من الظلمات إلى النور، كما قال -تعالى-: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:٦٨].

فالولي هو من تولاه الله -سبحانه- وسدده ووفقه إلى الإيمان والتقوى، فالله -جل وعلا- مولى الذين آمنوا، يتولى أمورهم ويوفقهم لما فيه رضاه من الإيمان والتقوى، وأما الكافرون فلا مولى لهم يهديهم ويرشدهم، كما قال -سبحانه-: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد:١١]، ومن لم يكن الله مُتَوَلِّيَه فإن الشيطان مُتَوَلِّيه، يخرجه من النور إلى الظلمات، كما قال -تعالى-: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج].

أي: كُتِبَ على الشيطان أنه يُضل أتباعَه المُتَوَلِّيـنَ له، ولا يهديهم إلى الحق، بل يهديهم إلى عذاب السعير ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٧].

والتولي: مصدر «**تَوَلَّى يَتَوَلَّى تَوَلِّيًا**» من باب «**تَفَعَّلَ**» وكان الأصل في مصدره «**تَوَلُّيًا**» بضم اللام، لكنَّ ثلاثيه فعل ناقص، فأبدلت الضمة كسرة؛ لأنه لا يوجد في كلام العرب اسمٌ آخرُهُ واوٌ أو ياءٌ لازمةٌ قبلها ضمة.

فتولي الله خاص بعباده المؤمنين، لا يكون إلا لهم، كما سبق بيانه.

أما ولاية الله فهي نوعان: "**عامة، وخاصة**".

فالعامة بمعنى التدبير والتصرف، وتكون للمؤمن والكافر، الطائع والعاصي، كما قال -سبحانه-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [الشورى:٢٨].

قال ابن كثير "في تفسيره" (٢٠٧/٧):

"{وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ} أي: هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، وهو المحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله".

وقال ابن السِّعْدِيِّ في "تفسيره" (ص٧٥٨):

"{وَهُوَ الْوَلِيُّ} الذي يتولى عباده بأنواع التدبير، ويتولى القيام بمصالح دينهم ودنياهم. {الْحَمِيدُ} في ولايته وتدبيره، الحميد على ما له من الكمال، وما أوصله إلى خلقه من أنواع الإفضال".

والخاصة تكون بمعنى التأييد والسداد والإعانة والهداية، ولا تكون إلا للمؤمنين؛ كما قال -تعالى-: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨].

ولأنه الولي -سبحانه- فلا وليَّ غيرُه، ولا معينَ ولا ناصرَ غيرُه، قال -سبحانه-: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء:١١١]. فهو -سبحانه- لا يتولى أحدًا من خلقه لاحتياجه إليه، أو لمعاونته له، فهو الغني الحميد جل جلاله، لا يحتاج إلى أحد من خلقه، بل جميع خلقه محتاجون إليه، ولكنه -سبحانه- يتخذ أولياء إحسانًا منه إليهم ورحمة بهم.

والدنيا: على وزن «**فُعْلَـى**» مؤنث «**أَدْنَـى**»، وسُمِّيت "**دُنْيا**" لدنوها وخستها وحقارتها، كما قال -جل علا-: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة:٦١].

قال الطبري:

"وَمَعْنَى قَوْلِهِ: {أَدْنَى} أَخَسُّ وَأَوْضَعُ وَأَصْغَرُ قَدْرًا وَخَطَرًا، وَأَصْلُهُ مِنْ قَوْلِهِمْ: هَذَا رَجُلٌ دَنِيٌّ بَيِّنُ الدَّنَاءَةِ".

وقيل: سميت "دنيا" لدُنُوِّها وقربها لنا عن الآخرة، وكذلك السماءُ الدُّنْيا هي القربى إلينا، وسميت الدنيا.

والآخرة: هي الحياة التي ليس بعدها حياة، قال -تعالى-: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤]، وقال -تعالى-: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر:٣٩]، فإما نعيم أبدي لأهل التوحيد، وإما شقاء أبدي لأهل الشرك.

أما أهل التوحيد فلا خوف عليهم؛ لأنه الله -جل شأنه- يتولاهم في الدنيا وفي الآخرة، فيتولاهم في الدنيا بهدايتهم إلى التوحيد والاتباع، وتوفيقهم ونصرتهم على أعدائهم، وفي الآخرة يبشرهم برحمته ورضوانه، ويهديهم إلى جنات النعيم، ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [يونس:٦٤].

فلهم البشرى عند موتهم بما يرون من ملائكة الرحمة، وما ينتظرهم من النعيم المقيم، وفي القبر بما يأتيهم من نعيم الجنة، ورؤية مقعدهم، وعند البعث يؤمنهم أمنا تاما إلى أن يهديهم إلى دار النعيم، كما قال -سبحانه-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [فُصِّلَت:٣٠،٣١]. جعلني الله وإياكم منهم.

وقوله: وأن يجعلك مباركًا أينما كنت

أي: وأسأل الله -جل وعلا- أن يُصَيِّـرَك مُبَارَكًا أينما كنت....، **والمُبَارَكُ**: النَّفَّاعُ، كثير الخير والنفعِ للآخرين، وقول الشيخ مقتبس من قول عيسى -عليه السلام-: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَـٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم].

وقوله: وأن يجعلك ممن إذا أُعْطِيَ شكر، وإذا ابْتُلِـيَ صبر، وإذا أذنب استغفر، فإن هؤلاء الثلاث عنوان السعادة

أي: وأسأل الله أن يجعلك ممن إذا أعطي -عطاءً لا شك أنه واقع- شكر.....

والعطاء: اسم لِمَا يُعْطَى، سواء أكان في الخير أم في الشر، وهو هنا مختص بالخير، مما يُعْطِيه الله لعبده من نعم ظاهرة وباطنة، وبما يقرب إليه -سبحانه-.

وعَطَاءٌ: أَصله "**عَطَاو**" بالواو لأَنه من "**عَطَوْتُ أَعْطُو**" لكنَّ العرب تقلب الواوَ همزةً إذا وقعت الواوُ متطرفةً عقب ألف زائدة، أما عند التثنية وإلحاق الهاء به فمن العرب من يبقيه على أصله، ومنهم من يهمزه، فيقولون: "**عَطَاءَةٌ، وعَطَاوَةٌ، وعَطَاءَانِ، وعَطَاوَانِ**".

والشُّكْرُ في اللغة: مصدر "**شَكَرَهُ يَشْكُرُهُ شُكْرًا**"، **وله معان**، منها: "الثناء، وعِرْفانُ الإحْسان ونَشْرُه، والرِّضَا بِالْيَسِيرِ".

قال ابن فارس: "**يَقُولُونَ**: فَرَسٌ شَكُورٌ، إِذَا كَفَاهُ لِسِمَنِهِ الْعَلَفُ الْقَلِيلُ. **وَيُنْشِدُونَ قَوْلَ الْأَعْشَى**:

وَلَا بُدَّ مِنْ غَزْوَةٍ فِي الْمَصِي *** فِ رَهْبٍ تُكِلُّ الْوَقَاحَ الشَّكُورَا

والشَّكَرُ بفتح الشين: السِّمَنِ، وهو مصدر "**شَكِرَ يَشْكَرُ شَكَرًا**"، هو كـ "**فَرِحَ يَفْرَحُ فَرَحًا**"، يقال: شَكِرَتِ الناقَةُ إذا امْتَلأَ ضَرْعُها، وسَمِنَتْ، وظَهَرَ عَلَيْهَا أَثَرُ الْعَلَفِ.

وشرعا: الِاعْتِرَافُ بِنِعْمَةِ الْمُنْعِمِ عَلَى وَجْهِ الْخُضُوعِ، **وَقِيلَ**: الثَّنَاءُ عَلَى الْمُحْسِنِ بِذِكْرِ إِحْسَانِهِ. حكاهما ابن القيم.

قال ابن القيم في "مدارج السالكين" (٢/٢٣٥):

"وَكَذَلِكَ حَقِيقَتُهُ -أي: الشكر- فِي الْعُبُودِيَّةِ. وَهُوَ ظُهُورُ أَثَرِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى لِسَانِ عَبْدِهِ: ثَنَاءً وَاعْتِرَافًا. وَعَلَى قَلْبِهِ: شُهُودًا وَمَحَبَّةً. وَعَلَى جَوَارِحِهِ: انْقِيَادًا وَطَاعَةً.

وَالشُّكْرُ مَبْنِيٌّ عَلَى خَمْسِ قَوَاعِدَ: خُضُوعُ الشَّاكِرِ لِلْمَشْكُورِ. وَحُبُّهُ لَهُ. وَاعْتِرَافُهُ بِنِعْمَتِهِ. وَثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ بِهَا. وَأَنْ لَا يَسْتَعْمِلَهَا فِيمَا يَكْرَهُ، فَهَذِهِ الْخَمْسُ: هِيَ أَسَاسُ الشُّكْرِ. وَبِنَاؤُهُ عَلَيْهَا. فَمَتَى عُدِمَ مِنْهَا وَاحِدَةٌ: اخْتَلَّ مِنْ قَوَاعِدِ الشُّكْرِ قَاعِدَةٌ".

والشكر يكون بالقلب، وباللسان، وبالجوارح.

قال ابن القيم في "مفتاح دار السعادة" (١٧٤/١):

"وَالشُّكْر للنعم مَبْنِيٌّ على ثَلَاثَة أركان: الإقرار بِالنعْمَةِ وإضافتها الى الْمُنعم بهَا وصرفها فِي مرضاته وَالْعَمَل فِيهَا بِمَا يجب فَلَا يكون العَبْد شَاكِرًا إِلَّا بِهَذِهِ الاشياء الثَّلَاثَة".

فالشكر بالقلب

أن يقر باطنا يقينا وصدقا أن ما به من نعم إنما هو من الله وحده لا شريك له، فليست هي بحولك وقوتك، ولا بحول غيرك وقوته، بل هذه النعم من الله وحده، يلزم كلَّ موحد أن يقر بذلك باطنا، كما قال -تعالى-: ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ** ﴾ [النحل:٥٣].

وأخرج مسلم عن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ مُطِرَ النَّاسُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شَاكِرٌ وَمِنْهُمْ كَافِرٌ، قَالُوا هَذِهِ رَحْمَةُ اللَّهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا**» فهؤلاء لم يشكروا بقلوبهم، لم يعتقدوا أن ما نزل بهم من نعمة المطر هو من الله.

والشكر باللسان

أن يتحدث بنعمة الله عليه، ويثني عليه -سبحانه- أنه منه وحده، كما قال -تعالى-: ﴿ **لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ** ﴾ [الزُّخرُف:١٣]، وقال -تعالى-: ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾ [الضُّحى:١١].

وفي حديث الأعمى والأبرص والأقرع قال الأعمى: " **قد كنت أعمى فرد الله عليَّ بصري**".

والشكر بالعمل

أن يسخر هذه النعمة في الوجه الذي يرضي الله جل وعلا، فلا يستخدمها إلا في طاعته، كما قال -تعالى-: ﴿**ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ**﴾ [سبأ:١٣].

أي: اعملوا آل داود شكرا لله على ما مَنَّ به عليكم من نعم؛ **لذا قال الشاعر**:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ منِّي ثَلَاثَةً *** يَدِي ولِسَانِـي وَالضَّمِيـرَ المُحَجَّبَا

أي: أَفَادَكُم إِنْعَامُكُمْ عَلَـيَّ ثلاثةَ أشياء: مكافأةَ ذلك باليد، ونشرَ المحامد باللسان وحبَّ القلب لكم.

أما الحمد فهو ذكر محاسن المحمود باللسان مع حبه وإجلاله وتعظيمه، سواء كان الحمد على نعمة، أو لا، فالله -جل وعلا- يُحمد على نعمه، ويُحمد على أفعاله وصفاته، سواء أكانت واصلة إلى المخلوق أم لا.

فالعلاقة بين الشكر والحمد هي العموم والخصوص الوجهي:

فيجتمعان في الثناء باللسان على النعم والإفضال، وينفرد الشكر عن الحمد في الثناء بالقلب والجوارح على النعمة، وينفرد الحمد عن الشكر في الثناء باللسان على ما ليس بنعمة، فالشكر أعم آلة وأخص متعلقا، والحمد عكسه؛ أعم متعلقا وأخص آلة.

ومن أسماء الله: الشاكر، والشكور.

قال -تعالى-: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن:١٧]، وقال -سبحانه-: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٣٤]، وقال: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٥٨]، وقال -تعالى-: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء:١٤٧].

فالشاكر: الذي يجزي عبادَهُ على أعمالهم وإن قصروا فيها.

والشكور: الذي يضاعف ذلك، ويكثِّـرُه لعباده.

قال ابن السعدي في "تفسير أسماء الله الحسنى" (ص٥٧):

"وهو الذي يشكر القليلَ من العمل الخالص النقي النافع، ويعفو عن الكثير من الزلل، ولا يضيع أجر من أحسن عملا، بل يضاعفه أضعافا مضاعفة بغير عدٍّ ولا حساب، ومن شُكْرِهِ أنه يجزي بالحسنة عشرةَ أمثالِها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وقد يجزئ الله العبد على العمل بأنواع من الثواب العاجل قبل الآجل، وليس عليه حق واجب بمقتضى أعمال العباد، وإنما هو الذي أوجب الحق على نفسه كرمًا منه وجودًا، والله لا يضيع أجر العاملين به إذا أحسنوا في أعمالهم وأخلصوها لله تعالى.

فإذا قام عبده بأوامره، وامتثل طاعته أعانه على ذلك، وأثنى عليه، ومدحه، وجازاه في قلبه نورا وإيمانا وسعة، وفي بدنه قوة ونشاطا، وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء، وفي أعماله زيادة توفيق.

ثم بعد ذلك يَقْدُمُ على الثواب الآجل عند ربه كاملا موفورا، لم تُنقصه هذه الأمور. ومِنْ شُكْرِهِ لعبده، أن من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه".

وكل من الشاكر والشكور متضمن لصفة الشكر.

أخرج الشيخان عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِى بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ فَقَالَ الرَّجُلُ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِى كَانَ بَلَغَ مِنِّى. فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ**». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ لَنَا فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ لأَجْرًا فَقَالَ «**فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**».

وقد وصف الله أنبيائه بأنهم كثيـرو الشكر، كما قال عن نوح: ﴿**إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا**﴾ [الإسراء:٣]، وقد قال النبي ﷺ عن نفسه: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**» متفق عليه.

قال ابن القيم في "مدارج السالكين" (١/١٥٧):

"وَمَقَامُ الشُّكْرِ جَامِعٌ لِجَمِيعِ مَقَامَاتِ الْإِيمَانِ، وَلِذَلِكَ كَانَ أَرْفَعَهَا وَأَعْلَاهَا، وَهُوَ فَوْقَ الرِّضَا وَهُوَ يَتَضَمَّنُ الصَّبْرَ مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ، وَيَتَضَمَّنُ التَّوَكُّلَ وَالْإِنَابَةَ وَالْحُبَّ وَالْإِخْبَاتَ وَالْخُشُوعَ وَالرَّجَاءَ، فَجَمِيعُ الْمَقَامَاتِ مُنْدَرِجَةٌ فِيهِ، لَا يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهُ اسْمَهُ عَلَى الْإِطْلَاقِ إِلَّا بِاسْتِجْمَاعِ الْمَقَامَاتِ لَهُ، وَلِهَذَا كَانَ الْإِيمَانُ نِصْفَيْنِ: نِصْفُ صَبْرٍ، وَنِصْفُ شُكْرٍ، وَالصَّبْرُ دَاخِلٌ فِي الشُّكْرِ، فَرَجَعَ الْإِيمَانُ كُلُّهُ شُكْرًا، وَالشَّاكِرُونَ هُمْ أَقَلُّ الْعِبَادِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى {وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ: ١٣]".

وقال: وَمِنْ مَنَازِلِ {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥] مَنْزِلَةُ الشُّكْرِ.

وَهِيَ مِنْ أَعْلَى الْمَنَازِلِ. وَهِيَ فَوْقَ مَنْزِلَةِ الرِّضَا وَزِيَادَةٌ. فَالرِّضَا مُنْدَرِجٌ فِي الشُّكْرِ. إِذْ يَسْتَحِيلُ وُجُودُ الشُّكْرِ بِدُونِهِ.

وَهُوَ نِصْفُ الْإِيمَانِ - كَمَا تَقَدَّمَ - وَالْإِيمَانُ نِصْفَانِ: نِصْفٌ شُكْرٌ. وَنِصْفٌ صَبْرٌ.

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ. وَنَهَى عَنْ ضِدِّهِ، وَأَثْنَى عَلَى أَهْلِهِ. وَوَصَفَ بِهِ خَوَاصَّ خَلْقِهِ. وَجَعَلَهُ غَايَةَ خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ. وَوَعَدَ أَهْلَهُ بِأَحْسَنِ جَزَائِهِ. وَجَعَلَهُ سَبَبًا لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ. وَحَارِسًا وَحَافِظًا لِنِعْمَتِهِ. وَأَخْبَرَ أَنَّ أَهْلَهُ هُمُ الْمُنْتَفِعُونَ بِآيَاتِهِ. وَاشْتَقَّ لَهُمُ اسْمًا مِنْ أَسْمَائِهِ. فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الشَّكُورُ وَهُوَ يُوَصِلُ الشَّاكِرَ إِلَى مَشْكُورِهِ بَلْ يُعِيدُ الشَّاكِرَ مَشْكُورًا. وَهُوَ غَايَةُ الرَّبِّ مِنْ عَبْدِهِ. وَأَهْلُهُ هُمُ الْقَلِيلُ مِنْ عِبَادِهِ".

فَشُكْرُ الله على نعمه من صفات المؤمنين الموحدين، والكفر بها من صفات الكفار والمنافقين، كما -تعالى-: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧]، وقال -تعالى-: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل:١١٢].

وقوله: «وإذا ابْتُلِيَ صبر».

الابتلاء في اللغة: الاختبار، وهو مصدر «**ابْتَلَى يَبْتَلِي ابْتِلَاءً**».

والبَلَاءُ في اللغة: العَطَاءُ، **ومنه قول زهير**:

رَأَى اللهُ بِالإِحْسَانِ مَا فَعَلَا بِكُمُ ** فَأَبْلَاهُمَا خَيْرَ البَلَاءِ الَّذِي يَبْلُو

وقيل: الاختبار أيضا، **ومنه قول الجَعْدِيِّ**:

كَفَانِي الْبَلَاءُ وَإِنِّي امْرُؤٌ *** إِذَا مَا تَبَيَّنْتُ لَمْ أَرْتَبِ

فقيل: الابتلاء والبلاء بمعنى واحد، **وقيل**: البلاء أعم، والابتلاء أخص، **وقيل**: غير ذلك.

والأظهر أن البلاء أعم من الابتلاء، بحيث يكون البلاء للمؤمنين والكافرين، أما الابتلاء فخاص بالمؤمنين؛ ولذلك قال -تعالى-: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران:١٥٤]، وقال -تعالى-: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٢٤].

ثم أكثر ما يكون البلاء عقوبة، كما قال -تعالى-: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف:١٦٨].

فإذا أُريد به تمحيص المؤمنين واختبارهم جاء مقيدا، كما قال -تعالى-: ﴿وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ﴾ [الأنفال:١٧]، وقال -تعالى-: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٤٩]، وقال -تعالى-: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ [الدخان:٣٣].

وربما كان البلاء والابتلاء مترادفين، كما قال سليمان عليه -عليه السلام-: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ﴾ [النمل:٤٠]، وحديث " إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءَ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ " أخرجه أحمد بإسناد صحيح.

قال النبي ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُمْ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ» أخرجه أحمد وأبو داود بإسناد صحيح.

فصفة المؤمن دائما أنه صابر على الابتلاء، شاكر في السراء، كما أخرج مسلم عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

والمراد من الابتلاء امتحانُ العبد واختباره، أيصبر ويثبت على دينه أم يسخط ويقنط فيسقط في الاختبار، أيرجع إلى الله -جل وعلا- أم يبتعد، أو تُكَفِيرُ سيئاته، ورَفْعُ درجاتِه، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم، وأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم، والمرء يُبتلى على حسب دينه، كما أخرج أحمد في "المسند" (٣/ص٨٧/ح ١٤٨١) بإسناد حسن عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ: «**الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ، فَالْأَمْثَلُ مِنَ النَّاسِ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلابَةٌ زِيدَ فِي بَلائِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ عَنْهُ، وَمَا يَزَالُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**». وهذا الحديث يبين أن البلاء والابتلاء قد يترادفان.

وبالبلاء يظهر المؤمن من المنافق؛ كما قال -تعالى-: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ**﴾ [الحج:١١].

والصبر لغة: الحَبْسُ، **قال ابن فارس في** "المقاييس":

"**يُقَالُ**: صَبَرْتُ نَفْسِي عَلَى ذَلِكَ الْأَمْرِ، **أَيْ**: حَبَسْتُهَا". وقد نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ «**أَنْ يُقْتَلَ شَيْءٌ مِنَ الدَّوَابِّ صَبْرًا**» أي: حبسا، أخرجه مسلم، وَمِنْهُ قَوْلُهُ -تعالى-: ﴿**وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ**﴾ [الكهف:٢٨]، أي: واحْبِسْ نَفْسَكَ مَعَهُمْ.

وشرعا: حَبْسُ النَّفْسِ عَنِ الْجَزَعِ وَالتَّسَخُّطِ. وَحَبْسُ اللِّسَانِ عَنِ الشَّكْوَى. وَحَبْسُ الْجَوَارِحِ عَنِ التَّشْوِيشِ. قاله ابن القيم في "المدارج".

والصبــر ثلاثة أنواع:

١- صبر على طاعة الله، وهو أعلاها منزلة.

٢- صبر عن معصية الله.

٣- صبر على أقدار الله.

قال ابن القيم في "مدارج السالكين" (٢/١٥١، ١٥٣):

" وَهُوَ وَاجِبٌ بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ. وَهُوَ نِصْفُ الْإِيمَانِ. فَإِنَّ الْإِيمَانَ نِصْفَانِ: نِصْفُ صَبْرٍ، وَنِصْفُ شُكْرٍ...... وَلِهَذَا كَانَ الصَّبْرُ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، وَلَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا صَبْرَ لَهُ، كَمَا أَنَّهُ لَا جَسَدَ لِمَنْ لَا رَأْسَ لَهُ. وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: خَيْرُ عَيْشٍ أَدْرَكْنَاهُ بِالصَّبْرِ. وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ ضِيَاءٌ. وَقَالَ: «مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ الله» وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ. إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ. فَكَانَ خَيْرًا لَهُ. وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ. فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

«وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ السَّوْدَاءِ الَّتِي كَانَتْ تُصْرَعُ فَسَأَلَتْهُ أَنْ يَدْعُوَ لَهَا: إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَكِ. فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ. فَدَعَا لَهَا».

وقوله: «وإذا أذنب استغفر».

أي: وأسأل الله أن يجعلك ممن إذا وقع في الذنب طَلَبَ المغفرة من الله جل وعلا.

والاستغفار صفة المؤمنين، كلما أذنب العبد بادر بالاستغفار، كما قال -تعالى-: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران:١٣٥]، والمعصية صفة ملازمة لبني آدم، كما قال النبي ﷺ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ» أخرجه أحمد والترمذي بإسناد حسن.

وقد كان النبي ﷺ يستغفر الله في اليوم أكثر من مئة مرة. كما عند مسلم وغيره، وهو الذي غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ﷺ، فكيف بنا؟، فالاستغفار فرض واجب يأثم من يتركه، وقد أمر الله به في مواضع كثيرة، من ذلك قوله -تعالى-: ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ﴾ [هود:٩٠]، وقوله -تعالى-: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المزَّمل:٢٠]، وقد أمر به الأنبياءُ قومَهم، كما قال نوح: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ [نوح:١٢]، وقال شعيب -عليه السلام- لقومه: ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴾ [هود:٩٠].

وقوله: «فإن هؤلاء الثلاث عنوان السعادة».

أي: فإن الشكر على النعماء، والصبر على الابتلاء، والاستغفار عند الوقوع في الذنب عنوان السعادة؛ لأنه ما مِن عَبْدٍ إلا وهو متلبس بهذه الثلاث، إما نعمة فحقها الشكر، وإما ابتلاء فحقه الصبر، وإما ذنب فحقه الاستغفار، فمن أداها كان سعيدا في الدارين، ومن لم يؤدها كان شقيا، فالمؤمن دائما صابر شاكر مستغفر، وغير المؤمن متسخط كافر بنعمة الله لا يستغفر، والحقيقة أنَّ مَنْ تَوَلَّاهُ اللهُ سدده وجعله مباركا، شاكرا على النعماء، صابرا على الابتلاء، مستغفرا دائما.

والعُنْوَانُ: ما جُعل علما ليدل على الشيء، وعُنْوَانٌ فيه ثماني لغات: «**عُنْوَانٌ، وعِنْوَانٌ**، كـ «فُعْوَالٍ وفِعْوَالٍ»، «**وعُنْيَانٌ، وعِنْيَانٌ**»، كـ «فُعْيَالٍ وفِعْيَالٍ»، «**وعِلْوَانٌ، وعُلوانٌ، وعُلْيَانٌ وعِلْيَانٌ**». بإبدال النون لاما.

أما الفعلُ ففيه خمسُ لغات، تقول: «**عَنْوَنْتُ الكتابَ عَنْوَنَةً**»، «**وعَلْوَنْتُهُ عَلْوَنَةً**»، «**وَعَنَّنْتُه**» بنونين، الأولى منهما مشددةٌ، «**تَعْنِينًا**»، «**وَعَنَّيْتُه**» بنون مشددة بعدها ياء «**تَعْنِيَةً**»، والخامسة: «**عَنَوْتُ الكتابَ أَعْنُوهُ عَنْوًا وعُنُوًّا**».

ويُجمع «**عُنوانٌ وعِنوانٌ**» على «**عناوينَ**»، ويُجمع «**عِلوانٌ وعُلوانٌ**» على «**عَلاوين**».

ثم قال:

اِعْلَمْ -أرشدك الله لطاعته- أنَّ الحَنِيفِيَّةَ ملةَ إبراهيمَ أنْ تعبدَ اللهَ وحده مخلصًا له الدين، وبذلك أمر الله جميع الناس، وخلقهم لها، كما قال -تعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]. فإذا عرفتَ أن الله خلقك لعبادته فاعلم أن العبادة لا تُسَمَّى عبادةً إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تُسَمَّى صلاةً إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشركُ في العبادة فسدتْ كالحدث إذا دَخَلَ في الطهارة، كما قال -تعالى-: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [التوبة:١٧].

قوله: «اعلم». أي: تَيَقَّنْ، فالعلم في اللغة: مطلق الإدراك [18].

والمراد به هنا إدراكٌ **مخصوص** مطابق للواقع، أي: حُكْمُ الذِّهْنِ الْجَازِمُ الْمُطَابِقُ لِلْوَاقِعِ؛ ويُؤْتَى بالعلم عند إرادة شيء مهم؛ وذلك لِجَذْبِ السامعِ، وتنبيهِهِ أَنَّ مَا يُلْقَى إليه شيءٌ عظيمٌ يَنْبَغِي له أن يَعْتَنِيَ به، وليس شيءٌ أحقَّ أن يُعْتَنَى به كمعرفة التوحيدِ وما يُضادُّهُ من الشرك، **فالمعنى**: كُنْ مُتَيَقِّظًا وَمُتَفَهِّمًا وَمُوقِنًا أن الحَنِيفِيَّةَ ملةَ إبراهيمَ... من ذلك قوله -تعالى-: ﴿**فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ**﴾ [محمد:١٩].

---

[18] لمزيد بيان عن معنى العلم لغة، والفرق بينه وبين العلم عند المناطقة والأصوليين راجع شرحي على نظم الورقات، والمسمى: "**بالشرح الكبير على نظم الورقات**"، وشرحي على السلم المنورق في علم المنطق، والمسمى: "**المختصر الوجيز في شرح سلم الأخضري**".

وجملة: «**أرشدك الله لطاعته**» معترضة بين الفعل ومُتَعَلِّقِه، وإرشاد اللهِ العبدَ للطاعة هو توفيقه له في طلب الخير، والبعد عن الشر، وفي هذا إشارة منه إلى أن الطاعة هي المقصودة من إرسال اللهِ الرسل، كما قال -سبحانه-: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ** ﴾ [النساء:٦٤].

والطاعة: فعل المأمور، واجتناب المحذور، فإن فعل العبدُ ذلك مخلصا لله جل وعلا، متبعا نبيه ﷺ فهي قُرْبَةٌ، فالقربة إذن أخص من الطاعة، وربما جاء كل منهما بمعنى الآخر.

وقوله: «**الحَنِيفِيَّةَ**» اسم "أنَّ"، و «**مِلَّةَ**» بدل مطابقة، نبي الله «**إبراهيمَ**» عليه السلام، «**أنْ تعبدَ الله**» أي: عبادةُ اللهِ، فالمصدر المنسبك من أنْ المصدرية والفعلِ المضارعِ في محل رفع خبر أنَّ، والجملة كلها من «**أَنَّ واسمِهَا وخبرِهَا**» تُؤَوَّلُ بمصدر سادٍّ مسدَّ مفعولي اعلم، ويجوز في "**ملة**" الرفع على أنها خبر "**أن**"، والمصدر المنسبك من أنْ المصدرية والفعلِ المضارع في محل رفع خبر مبتدإ محذوف، **أي**: أن الحنيفية ملةُ إبراهيم، وهي عبادة الله.

الحَنِيفِيَّةُ نسبة إلى الحَنِيف، مأخوذ من قول النبي ﷺ: «**أَحَبُّ الْأَدْيَانِ إِلَى اللهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ**». أخرجه الإمام أحمد في المسند بإسناد صحيح لغيره، والبخاري تعليقا.

والحنيف في اللغة: المَائِلُ، وأصل الحَنَفِ مَيْلٌ في صدر القَدَم.

وفي الشرع: المقبل على الإسلام الثابتُ عليه المعرض عما سواه، **أي**: أنْ يعبدَ اللهَ وحده مخلصًا له الدين، كما قال -جل وعلا- عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ **إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ**

﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٢١ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٢٢ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٣﴾ [النحل].

وقد قال إبراهيم عن نفسه: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٧٩].

فأمر اللهُ نبيَّه باتباع ملة إبراهيم التي هي الحنيفية؛ إذ قال -سبحانه-: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٦١]، وقال: ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:٩٥].

وقال: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس:١٠٥]، وقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠].

وقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ﴾ [النساء:١٢٥]. فهاتان جملتان خبريتان أريد بهما الإنشاء.

والمِلَّةُ في اللغة: السُّنَّةُ والطَّرِيقَةُ، مأخوذة من "**طَرِيقٌ مَلِيْلٌ**" أي: مسلوك فيه حتَّى صَارَ بينا واضحا، وملة كل قوم دينهم وطريقتهم، ومِلَّةُ إبراهيم هي الحَنِيفَيَّةُ المُسْلِمَةُ، كما قال -تعالى-: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. فملة إبراهيم هي الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله وحده،

والبراءة مما يُعبد من دون الله وأهلِه، وتكفير أهلِه ومعاداتهم وبغضهم، كما قال الله -تعالى-: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة:٤]، وقال -تعالى-: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزُّخرُف]. هذه هي ملة إبراهيم، التي كان المشركون من مشركي العرب واليهود والنصارى يزعمون أنهم على ملة إبراهيم، فكذبهم الله -جل وعلا- بقوله: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران:٦٧]، ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة:١٣٥].

فإذا عرفت ذلك فاعلم أن الحنيفية هي دين جميع الأنبياء، وفطرة الله التي فطر الناس عليها، كما قال -تعالى-: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠].

وفي الحديث القدسي قال الله -تعالى-: «**إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا .... الحديث**». أخرجه مسلم.

فإن قال قائل: لماذا خص اللهُ إبراهيم بإضافة الملة إليه، وأمر النبي **محمدا** ﷺ باتباع ملة إبراهيم، مع أنها ملة جميع الأنبياء؟

قيل: خُص بها إبراهيم لأن الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ من مشركي العرب واليهود والنصارى كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم، فكذبهم الربُّ -جل وعلا- في هذا الادعاء، وبين أن ملة إبراهيم -عليه السلام- هي عبادة الله وحده، والكفر بما يعبد من دون الله، وأن إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما ولم يك من المشركين، وبين -سبحانه- أنه اصطفاه واتخذه خليلا، وجعله للناس إماما يُقتدى به، ولذلك أمر نبيه ﷺ باتباع ملة إبراهيم، وقد حاج النبي ﷺ المشركين في ملة إبراهيم التي هي ملة الإسلام، وهي الملة التي بُعث بها النبي **محمد** ﷺ، كما في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في "المسند" بإسناد حسن، وفيه أن النبي ﷺ قال: «**وَلَكِنِّي بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ**»، وقد بين -سبحانه- أن أولى الناس بإبراهيم هم الذين اتبعوه والنبي **محمد** ﷺ، وليس أهل الشرك من مشركي العرب واليهود والنصارى؛ إذ قال: ﴿ **إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران:٦٨].

وقوله : «أنْ تعبدَ اللهَ وحده».

أصل العبادة في اللغة: الخُضُوعُ والذُّلُّ، والتَّعْبِيدُ هو التَّذْلِيلُ، **يُقال**: طريقٌ مُعَبَّدٌ. **أي**: مُذَلَّلٌ إذا كان مُذَلَّلًا بِكَثْـرَةِ الوَطْءِ، **قال طَرَفَةُ في معلقته**:

تُبَارِي عِتَاقًا نَاجِيَاتٍ وأَتْبَعَـتْ *** وَظِيفًا وظِيفًا فَوْقَ مَوْرٍ مُعْبَّـدِ

أي: فوقَ طريقٍ مُذَلَّلٍ مِنْ كَثْرَةِ السَّيْرِ عليه.

والعبادة في الشرع تُطلق على شيئين:

الأول: الفِعْلُ الذي هو التعبد بمعنى التذللِ لله -جل وعلا- بفعلِ أَوَامِرِهِ واجتنابِ نَوَاهِيهِ مَحَبَّةً وتعظيمًا؛ **كما قال ابنُ القيِمِ في** "النونية":

وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُـبِّــهِ *** مَـعْ ذُلِّ عَـابِـدِهِ هُمَـا قُـطْبَـانِ

والثاني: المفعول الذي هو المُتَعَبَّدُ بِهِ.

فهي كمال قال ابن تيمية:

" اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ: مِنْ الْأَقْوَالِ، وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ.

فَالصَّلَاةُ، وَالزَّكَاةُ، وَالصِّيَامُ، وَالْحَجُّ، وَصِدْقُ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ، وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةُ الْأَرْحَامِ، وَالْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ، وَالْجِهَادُ لِلْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَالْإِحْسَانُ إلَى الْجَارِ، وَالْيَتِيمِ، وَالْمِسْكِينِ، وَابْنِ السَّبِيلِ، وَالْمَمْلُوكِ مِنْ الْآدَمِيِّينَ وَالْبَهَائِمِ، وَالدُّعَاءُ، وَالذِّكْرُ، وَالْقِرَاءَةُ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنْ الْعِبَادَةِ.

وَكَذَلِكَ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَخَشْيَةُ اللَّهِ، وَالْإِنَابَةُ إلَيْهِ، وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ، وَالصَّبْرُ لِحُكْمِهِ، وَالشُّكْرُ لِنِعَمِهِ، وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ، وَالرَّجَاءُ لِرَحْمَتِهِ، وَالْخَوْفُ لِعَذَابِهِ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ هِيَ مِنْ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ ".

فالصلاةُ عبادةٌ، وهي المُتَعَبَّدُ به، وإذا صليت أنتَ فَفِعْلُكُ -الذي هو التعبدُ- يكون عِبَادَةً.

ومن أنواع العبادة كما قال الشيخ في "الأصول الثلاثة":

" مثلُ الإِسْلامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ، وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُوعُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالاسْتِعَانَةُ، وَالاسْتِعَاذَةُ، وَالاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلَكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا، كُلُّهَا للهِ تَعَالَى.

وقوله: «مخلصا له الدين».

المُخْلِص الذي وحَّد الله -تعالى- توحيدا صافيا من شوائب الشرك والبدعة، بحيث يكون لله وحده ليس لغيره فيه نصيب، كما قال -تعالى-: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزُّمَر:٢]، وقال -تعالى-: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البيِّنة:٥]، وقال -تعالى-: ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾ [الأعراف:٢٩]، وَقَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزُّمَر:١١]، وقال: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ [الزُّمَر:١٤].

والعمل لا يكون مقبولا عند الله إلا إذا كان خالصا صوابا، فالخالص ما كان لله وحده، والصواب ما كان على السنة، كما قال -تعالى-: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]، وقال -سبحانه-: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰۗ﴾ [لقمان:٢٢]، وقال -سبحانه-: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ﴾ [النساء:١٢٥].

قال ابن القيم في "مدارج السالكين" (٢/٩٠):

" فَإِسْلَامُ الْوَجْهِ: إِخْلَاصُ الْقَصْدِ وَالْعَمَلِ لِلَّهِ. وَالْإِحْسَانُ فِيهِ: مُتَابَعَةُ رَسُولِهِ ﷺ وَسُنَّتِهِ، وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ الْأَمْرِ، وَلُزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ. فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ**» أَيْ لَا يَبْقَى فِيهِ غِلٌّ، وَلَا يَحْمِلُ الْغِلَّ مَعَ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ. بَلْ تَنْفِي عَنْهُ غِلَّهُ. وَتُنَقِّيهِ مِنْهُ. وَتُخْرِجُهُ عَنْهُ. فَإِنَّ الْقَلْبَ يَغِلُّ عَلَى الشِّرْكِ أَعْظَمَ غِلٍّ. وَكَذَلِكَ يَغِلُّ عَلَى الْغِشِّ. وَعَلَى خُرُوجِهِ عَنْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ بِالْبِدْعَةِ وَالضَّلَالَةِ. فَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ تَمْلَؤُهُ غِلًّا وَدَغَلًا. وَدَوَاءُ هَذَا الْغِلِّ، وَاسْتِخْرَاجُ أَخْلَاطِهِ بِتَجْرِيدِ الْإِخْلَاصِ وَالنُّصْحِ، وَمُتَابَعَةِ السُّنَّةِ".

والدِّينُ في اللغة: الطَّاعَةُ والانقياد، **يُقَالُ**: دَانَ بهذا الدينِ إذا طاع وانقاد، وَقَوْمٌ دِينٌ، أَيْ مُطِيعُونَ مُنْقَادُونَ؛ **كما قال الطِّرِمَّاحُ**:

مَلِكٌ تَدِينُ له المُلُوكُ *** ولا يُجَاثِيهِ المُناضِلْ

ومنه قوله -تعالى-: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ [يوسف:٧٦]، **قيل**: في طاعة الملك.

وربما جاء الدِّينُ بمعنى الحُكْمِ، **قيل في دين الملك**: في حكمه، ومن ذلك قوله -تعالى-: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]، أي: يَوْمِ الْحُكْمِ، وهذا الحكم يستلزم الْحِسَابَ وَالْجَزَاءَ، وكونهم مطيعين منقادين، ومنه قولهم: "**دَانَ المَلِكُ النَّاسَ**" **أَي**: قهرهم وحكمهم فأطاعوه وأذعنوا له، **ويقال**: دِنْتُهُم فدانُوا.

وقوله: وبذلك أمر اللهُ جميعَ الناسِ، وخلقهم لها، كما قال -تعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

«**وبذلك**» متعلق بـ "**أَمَرَ**"، أي: وبأن يعبدوا اللهَ وحده مخلصين له الدين «**أَمَرَ اللهُ جميعَ الناسِ**» من الجنِّ والإنسِ؛ لأن لفظ الناس إذا أُطْلِقَ قد يُراد به الجنُّ والإنس، كما قال -تعالى-: ﴿**ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦**﴾ [الناس:٦]، وقال -تعالى-: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ:٢٨]، **للناس**: أي للإنس والجن، وقال -تعالى-: ﴿ **قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقال -تعالى-: ﴿**وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا**﴾ [النساء:٧٩]، وأخرج الشيخان عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مسعود في قوله -تعالى-: {إِلَى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ} قَالَ: «**كَانَ نَاسٌ مِنْ الْإِنْسِ يَعْبُدُونَ نَاسًا مِنْ الْجِنِّ فَأَسْلَمَ الْجِنُّ وَتَمَسَّكَ هَؤُلَاءِ بِدِينِهِمْ**».

وأخرج الشيخان واللفظ للبخاري عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا ...... وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**».

«**وخلقهم**» أي: خلق الجنَّ والإنسَ «**لها**» **أي**: للعبادة، فالضمير في "**لها**" يعود على المصدر المنسبك من أن والفعل المضارع.

«**كما**» الكاف تمثيلية «**قال**» الله «**تَعَالَى**» فعل ماض مبني على الفتح المقدر منع من ظهوره التعذر، والفاعل ضمير مستتر جوازا تقديره "**هو**" يعود على "**الله**" جل وعلا، وجملة "**تعالى**" لا محل لها اعتراضية بين القول ومقوله.

وقوله -تعالى-: «**إلا ليعبدون**» استثناء بعد نفي يفيد الحصر والقصر، **أي**: أن الله -جل وعلا- لم يخلق الجنَّ والإنسَ لشيء من الأشياء إلا لعبادته، فلم يخلقهم

لأجل النبي محمد ﷺ كما يزعم غلاة المتصوفة، ولم يخلقهم لحاجته إليهم تعالى شأنه، ما يريد منهم من رزق وما يريد أن يطعموه، فهو الرزاق ذو القوة المتين، الغني عن العالمين، إليه يحتاج جميع الخلق ولا يحتاج لأحد من خلقه، فلم يخلق خلقَه لحاجته إليهم، وإنما خلقهم لعبادته، لطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، كما قال -سبحانه-: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١]، وقال -تعالى-: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البيِّنة:٥]، ورأس الأوامر الأمر بتوحيد الله، ورأس النواهي النهي عن الإشراك به، فهذه هي الغاية التي لها خلق اللهُ الجنَّ والإنسَ، ولها أرسل جميعَ الرسل، وأنزل الكتب.

وقوله: «فإذا عرفتَ أن الله خلقك لعبادته فاعلم أن العبادة لا تُسَمَّى عبادةً إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تُسَمَّى صلاةً إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشركُ في العبادة فسدتْ كالحدث إذا دَخَلَ في الطهارة، كما قال -تعالى-: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ **[التوبة:١٧]».**

أي: «فإذا عرفتَ» أيها العبد **«أن الله خلقك لعبادته»** لا لشيء آخر **«فاعلم»** فتيقن **«أن العبادة»** التي سبق بيان معناها شرعا **«لا تُسَمَّى عبادةً»** على سبيل الحقيقة، لا من حيث فعل الفاعل، فالعبادة إذن أشمل مطلقا من التوحيد؛ إذ كل موحد عابد لله، وليس كل عابد لله موحدا؛ لأن المشرك قد يعبد اللهَ ويعبد معه غيره كما سيأتي

بيانه، حينئذ ليس كل من عبد اللهَ يكون موحدا، لكن كل موحد عابد لله «**إلا مع التوحيد**»؛ لأن إخلاص الدين لله -جل وعلا- شرط في قبول العبادة، فكما أن الصلاة لا تكون صحيحة إلا بوجود الطهارة، كذلك لا تصح عبادة أحد إلا إذا كان موحدا مخلصا دينه لله وحده، كما قال -تعالى-: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزُّمَر:٢]، وقال -تعالى-: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البيِّنة:٥]، وقال: ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ﴾ [الأعراف:٢٩]، وَقَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزُّمَر:١١].

وهذا المثال من الشيخ إنما جاء به ردا على من يشك في أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد، وهذا مسلك من مسالك الجدل معلوم، وهو التدليل بما هو معلوم عند الخصم على ما هو مجهول عنده أو على ما مشكوك فيه لإقامة الحجة عليه، وإزالة الشك عنه، إلا أن حقيقة الأمر أن اشتراط التوحيد في قبول العبادة أقوى من اشتراط الطهارة في صحة الصلاة؛ وذلك من وجوه:

الأول: أن التوحيد شرط في قبول جميع الأعمال، أي: لا تُقبل عبادة البتة إلا بالتوحيد، أما الطهارة فشرط في بعض العبادات.

الثاني: أن التوحيد لا يسع أحدا سمع بدين الإسلام أو تمكن من العلم أنْ لا يأتي به، بخلاف الطهارة، فإنها تسقط ببعض الأعذار.

والتوحيد في اللغة: جَعْلُك الشيءِ وَاحِدًا، مصدر «**وَحَّد يُوَحِّدُ تَوْحِيدًا**».

وشرعا: إفراد الله -جل وعلا- بما يَخْتَصُّ بِهِ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ والإِلَهِيَّةِ والأَسْمَاءِ والصِّفَاتِ، ولا يتحقق التوحيد إلا بالنفي والإثبات.

فتوحيد الربوبية: هو توحيد الله بأفعاله «**كالخَلْقِ والرَّزْقِ والإِحْيَاءِ والإِمَاتَةِ والإِجَارَةِ والمُلْكِ والتَّدْبِيرِ**» وغير ذلك من أفراد الربوبية، فهو إفراد الله وحده بالربوية، فتعتقد أنه لا خالقَ إلا الله، ولا رازق إلا الله، ولا مالك إلا الله، ولا مميت إلا الله، ولا محي إلا الله، ولا مدبر إلا الله، كما قال -تعالى-: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [الأعراف:٥٤]. فقدم الخبر في قوله -تعالى-: {أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْر} لإفادة الحصر.

وقوله -تعالى-: ﴿**هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ**﴾ [فاطر:٣]، وقوله -تعالى-: ﴿**ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ**﴾ [الزُّمَر:٦٢].

وقوله -تعالى-: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ**﴾ [غافر:٦٨]، أي: هو وحده المحي المميت، ووجه كونه حصرا أن كلا من المبتدإ والخبر معرفة.

وقال -سبحانه-: ﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ**﴾ [المائدة:١٨].

وهذا القسم من التوحيد أثبته المشركون في الجملة ولم ينكروه، دليل ذلك قوله -تعالى-: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٣١]، وقوله -تعالى-: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المؤمنون]، وقوله -تعالى-: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت:٦١]، وقوله -تعالى-: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزُّخرُف:٩].

وقوله -تعالى-: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزُّمَر:٣٨].

فالمشركون يقرون في الجملة بأن الله هو الخالق الرازق المدبر المحي المميت، الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، لكنهم كانوا يشركون في عبادته، فكانوا بذلك كفارا؛ لأنه لا يصح توحيد عبد إلا باجتماعها، على أنه قد وقع الشرك من بعضهم في الربوبية أيضا كما سيأتي بيانه.

وتوحيد الإِلَهِيَّةِ: هو إفراد الله بالعبادة، **أي**: بالعبادةِ مع الحب والتعظيم؛ لأنه ذو الأُلُوهَةِ والعِبَادَةِ.

ويقال له أيضا: توحيد العبادة باعتبار إضافته إلى الإنس والجن والملائكة؛ لأنهم العابدون، وهو المعبود سبحانه، فهو وحده المستحق للعبادة، وجميع ما يدعون من دونه هو الباطل، كما قال -تعالى-: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [لقمان:٣٠].

فإفراد الله بالعبادة: أن تكون عبدا لله وحده، تفرده بالتذلل محبة وتعظيما، وتعبده بما شرع، قال -تعالى-: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومًا مَّخۡذُولًا﴾ [الإسراء:٢٢].

أما حُكْمُ الله فمن حيث إنه فعل لله -جل وعلا- فهو من الربوبية، فهو -سبحانه- الحاكمُ لهذا الكون لا حاكمَ غيرُه، وهو الذي يَشْرَع لعباده -سبحانه- لا شارِعَ غيره، ومن حيث إنه فعل العباد فهو عبادة من توحيد الإلهية؛ لأنه متعلق بأفعالهم، والله -سبحانه- لا يشرك في حكمه أحدا، كما قال: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الشورى:٢١]، وقال -سبحانه-: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [القصص:٧٠]، فقدَّم الجارَّ والمجرور لإفادة الحصر والقصر، **وقال**: ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف:٢٦]. فلا يشرك في حكمه أحدا، سواء كان حكما كونيا أو شرعيا.

فتوحيد الإلهية كفر به أكثر الخلق، وجحدوه، وفيه كانت الخصومة بين الرسل وبين أقوامهم، فمن أجل ذلك أرسل الله الرسل، وأنزل عليهم الكتب، قال الله -تعالى-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وهذا التوحيد هو الذي تدل عليه كلمة التوحيد "**لا إله إلا الله**" بدلالة المطابقة.

وتوحيد الأسماء والصفات: هو إفرادُ الله -جل وعلا- بأن له أسماءً حُسْنَى وَصِفَاتٍ عُلَى، لا نَرُدُّ شيئا منها، ولا نُحَرِّفُ شيئا منها، ولا نُعَطِّلُ، ولا نُمَثِّلُ، قال -تعالى-: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه:٨].

وتوحيد الله بأسمائه وصفاته لا يتم إلا بشيئين:

الأول: الإثبات.

أي: أن نثبت لله -سبحانه- ما أثبته لنفسه من أسماء وصفات، وما أثبته له رسوله ﷺ، لا نرد شيئا منها، ولا نحرف شيئا منها عن معناه.

الثاني: أن ننفي المماثلة عنه -سبحانه-.

دليل ذلك قوله -تعالى-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فأثبت لنفسه -سبحانه- أنه السميع البصير، ونفى -سبحانه- أن يكون سمعُه وبصرُه كسمع المخلوقين وكبصرِهم؛ لأنه سبحانه- ليس كمثله شيء، وكذلك يُقال في جميع الصفات.

فمن أنكر الأسماءَ والصفات، أو أثبت الاسمَ وأنكر الصفةَ، ولم يثبت ما أثبته الله لنفسه فهو مُعَطِّلٌ، أو أثبتها مع تغيير معناها عن المعنى المتبادر من إطلاق اللفظ؛ **كأن يقول**: السمع والبصر ليس معناه أن يسمع الأصوات، ويرى الأشياءَ، إنما السمع والبصر هو العلم بها فهو مُحَرِّفٌ !!، ومرد ذلك إلى التعطيل والإنكار.

ومن أثبتها مع تمثيلها بشيء من مخلوقات -سبحانه- فهو ممثل، ومن أثبتها بغير تمثيل فهو موحد.

وقد اجتمع التوحيد بأقسامه في قوله -تعالى-: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الأنعام:١٠٢]، وقوله -سبحانه-: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥]، وقوله -تعالى-: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، فتُرِك المُتَعَلِّقُ لإفادة العموم، **أي**: أحدٌ في ربوبيته، أحدٌ في إلهيته، أحدٌ في أسمائه وصفاته.

فكلمة التوحيد "**لا إله إلا الله**" تدل على معنى: "لا معبودَ حقٌّ إلا الله" بدلالة المطابقة، وتوحيدُ العبادةِ يتضمن توحيدَ الربوبية والأسماءِ والصفات، وتوحيدُ الربوبيةِ والأسماءِ والصفات يستلزم توحيدَ العبادة.

وقوله: «فإذا دخل الشركُ في العبادة فسدتْ».

أي: فإذا عرفت ما سبق من بيان معنى توحيد العبادة، وأردت أن تعرف ما يضاده من الشرك في العبادة فأقول لك: إذا دخل الشرك في العبادة فسدت.

ولفظ الشركِ في لسان العرب: يدل غالبا على مخالطةٍ بين اثنين، وقد يُراد به التسويةُ، والنَّصِيبُ، **والشَّرِيكُ**: صفةٌ مشبهةٌ من «**شَرِكَ يَشْرَكُ فهو شَرِيكٌ**»، **أي**: فَعِيلٌ بمعنى مفعول، وربما جاء بمعنى فاعل؛ ومُشْرِكٌ اسم فاعل من أَشْرَكَ، **أما الإشراك**: فَفِعْلُ المُشْرِكِ الشِّرْكَ.

والشِّرْكُ: هو اتِّخَاذُ النِّدِّ والشَّرِيكِ مَعَ اللهِ جل وعلا؛ فقد أخرج الشيخان عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «**سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**».

وقال -تعالى-: ﴿**وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ**﴾ [إبراهيم:٣٠].

وقال -تعالى-: ﴿**وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ**﴾ [الزُّمَر:٨]، وقال -تعالى-: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ**﴾ [البقرة:١٦٥].

وقال -تعالى-: ﴿**فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة:٢٢].

واتخاذُ الندِّ والشريك مع الله -جل وعلا- يعني: تَسْوِيَةَ غَيـرِ اللهِ باللهِ فيما هو من خصائص الله؛ **دليل ذلك قولُ المشركين**: ﴿**تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾**﴾ [الشعراء:٩٨].

وينقسم الشرك إلى: «أكبرَ وأصغرَ».

فما كان مخرجا من الملة فهو أكبر، وما لم يكن مخرجا من الملة فهو أصغر.

قال ابنُ تيمية في "مجموع الفتاوى" (٩١/١):

" وَهُوَ نَوْعَانِ: شِرْكٌ فِي الْإِلَهِيَّةِ وَشِرْكٌ فِي الرُّبُوبِيَّةِ. فَأَمَّا الشِّرْكُ فِي الْإِلَهِيَّةِ فَهُوَ: أَنْ يَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا؛ **أَيْ**: مِثْلًا فِي عِبَادَتِهِ، أَوْ مَحَبَّتِهِ، أَوْ خَوْفِهِ، أَوْ رَجَائِهِ، أَوْ إنَابَتِهِ، فَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ إلَّا بِالتَّوْبَةِ مِنْهُ.

إلى أن قال:

" وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي: فَالشِّرْكُ فِي الرُّبُوبِيَّةِ؛ فَإِنَّ الرَّبَّ -سُبْحَانَهُ- هُوَ الْمَالِكُ الْمُدَبِّرُ الْمُعْطِي الْمَانِعُ الضَّارُّ النَّافِعُ الْخَافِضُ الرَّافِعُ الْمُعِزُّ الْمُذِلُّ، فَمَنْ شَهِدَ أَنَّ الْمُعْطِيَ أَوْ الْمَانِعَ أَوْ الضَّارَّ أَوْ النَّافِعَ أَوْ الْمُعِزَّ أَوْ الْمُذِلَّ غَيْرُهُ فَقَدْ أَشْرَكَ بِرُبُوبِيَّتِهِ".

وينقسم باعتبار آخر إلى أكبرَ وأصغرَ وخفيٍّ.

فالشرك الأكبر: هو المُخْرِجُ من الملة، وهو الذي يُخلد صاحبه في النار، كشرك الدعاء، وشرك الطاعة، وشرك الخوف، وشرك التوكل، وشرك المحبة، وشرك الرجاء، وغير ذلك من أنواع الشرك.

والشرك الأصغر: كُلُّ ما حَكَمَ اللهُ -جل وعلا- عليه بأنه شِرْكٌ ولم يُخْرِجْ صَاحِبَهُ من مِلَّةِ الإسلام، **أو**: هو ما كان وسيلةً للشرك الأكبر، أو ما كان فيه معنى التنديد؛ **كقول**: توكلتُ على الله وعليك، والتوكل لا يكون إلا على الله.

وهو من الكبائر؛ ولذلك قال عبدُ الله بنُ مسعود -رضي الله عنه- فيما أخرجه ابنُ أبي شيبةَ في "المصنف" (٣/ص٤١٦/ح١٢٤١٤)، والطبرانيُّ في "الكبير" (٨/ص١٠٠/ح٨٨١٠) وغيرُهما بإسنادٍ صحيح على شرطِ الشيخين: «**لأَنْ أَحْلِفَ بِاللَّهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ وَأَنَا صَادِقٌ**».

ثم كلٌّ من الشركِ الأكبرِ والأصغرِ قد يكون ظاهرا وقد يكون خفيا.

فالظاهرُ من الشركِ الأكبرِ: كعبادة الأصنامِ والأوثانِ والأمواتِ.

والخفيُّ منه: كشرك المنافقين، والرياءِ المُخْرِجِ من الملة.

والظاهر من الشرك الأصغر: كالحلفِ بغيرِ الله، وقول: ما شاء الله وشئت، ولُبْسِ الحَلْقَةِ، وتعليق التمائمِ، وغيرِ ذلك، كاتخاذ الأسباب التي لم يأذن الله بها.

والخفيُّ منه: كيسير الرياء.

وليس هناك تعارضٌ بين القسمتين.

ثم كل من الشرك الأكبر والأصغر يَنْقَسِمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ كالتوحيد، وهي: «**شركٌ في الربوبية، وشركٌ في الإِلَهِيَّةِ، وشركٌ في الأسماء والصفات**».

فالشرك في الربوبية نوعان: «**تعطيلٌ، وغيرُ تعطيلٍ**».

فشركُ التعطيلِ: هو أَقْبَحُ أَنْوَاعِ الشرك؛ كشركِ فرعون؛ وشركِ الفلاسفةِ القائلين بِقِدَمِ العالم، وشركِ الجهمية، وأهلِ وَحْدَةِ الوُجُودِ؛ كابن عَرَبِيٍّ، وَابْنِ سَبْعِينَ، وَالتِّلِمْسَانِيِّ، وابنِ الفارضِ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ المَلَاحِدَةِ، والدهريين، وَبَعْضِ النصارى، وكشرك الباطنية القائلين بأن أئمتهم وأوليائهم يعلمون ما كان وما يكون.

وغيرُ التعطيل: كشرك مَنْ جَعَلَ مَعَ الله إلهًا آخر ولَمْ يُعطلْ أَسْمَائَهُ وَصِفَاتِهِ ورُبُوبِيَّتَهُ؛ كشرك النصارى الذين جعلوه ثالثَ ثلاثة، وشركِ طَوُائِفَ من اليهود، وشركِ المَجُوسِ القائلين بإسناد حوادثِ الخيرِ إلى النور، وحوادثِ الشرِّ إلى الظلمة، وَشِرْكِ عُبَّادِ الشمسِ، والقمرِ، والكواكب.

قال الشيخ سليمانُ بنُ عبدِ الله:

ويَلتحقُ به من وجهٍ شركُ غلاةِ عُبادِ القبورِ، الذين يزعمون أن أرواحَ الأولياءِ تتصرف بعد الموت، فيقضون الحاجات، ويُفَرِّجُونَ الكُرُبَاتِ، وينصرون مَن دعاهم، ويحفظون مَنْ التجأ إليهم، وَلَاذَ بِحِمَاهُمْ، فإنَّ هذه من خصائص الربوبية، كما ذكره بعضهم في هذا النوع.

والشرك في الأسماء والصفات أربعة أنواع:

الأول: تمثيلُ الخالقِ بالمخلوق؛ **كالمُمَثِّلَةِ القائلين**: يَدُ الله كأيدينا، وَسَمْعُهُ كسمعنا، وَبَصَرُهُ كبصرنا.

والثاني: تمثيلُ المَخْلُوقِ بالخالق، ومن هذا النوع شركُ النصارى أيضا؛ لأنهم مَثَّلُوا عيسى بالله جل وعلا.

والثالث: شرك التعطيل؛ كشرك فرعون، والجهمية.

والرابع: اشتقاقُ أَسْمَاءٍ للآلِهَةِ الباطلةِ مِنْ أَسْمَاءِ الإله الحَقِّ؛ كما فعل المشركون؛ إذ سَمَّوُا اللَّاتَ مِنَ الإِلَهِ، والعُزَّى مِنَ العَزِيزِ.

والشرك في توحيد الإِلَهِيَّةِ: صَرْفُ العبادة لغير الله، ويسمى الشركَ في توحيد الإِلَهِيَّةِ **وهو نوعانِ أيضا**:

أحدهما: أن يجعل لله نِدًا يَعْبُدُهُ كما يَعْبُدُ اللهَ، فَيَصْرِفُ لهذا النِّدِّ شيئا من العبادات؛ كالدعاء، أو الشفاعة، أو الرجاء، أو الرهبة، أو الخشية، أو المحبة، أو غيرِ ذلك من العبادات.

والثاني: الشرك الأصغر، كيسيرِ الرياءِ، والتَّصنُّعِ للمخلوق، وعدمِ الإخلاص لله تعالى في العبادة، والْحلفِ بغير الله، إلغ، وقد يصير الشركُ الأصغرُ أكبرَ.

وهذا النوع من الشرك هو المراد من قول الشيخ: "**فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت** ...."؛ فلفظا التوحيد والشرك إذا أُطْلِقَا في الشرع انصرفا غالبا إلى توحيد العبادة، والشرك في العبادة.

واعلم أن أصلَ الشركِ هو الغُلُوُّ في الصالحين، واتخاذُهُمْ شُفَعَاءَ ووسائطَ عند الله، ودليلُهُ ما أخرجه البخاري (ح ٤٥٣٩) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قال: "صَارَتْ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ"، يريدُ ابنُ عباسٍ آلهةَ قومِ نوح الواردةَ في قولِهِ -تعالى-: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣]. قال: "**هي أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ**".

فَمَنْ صَرَفَ شَيْئًا من العبادة لِغَيْرِ اللهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٧].

فإذا دخل هذا الشرك في العبادة فسدت؛ لأن الشرك محبط للعمل، كما قال -سبحانه-: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴾ [التوبة:١٧]».

فبين -سبحانه- أنه حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون وذلك بسبب أنهم أشركوا بالله جل وعلا.

وقال -سبحانه-: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:٨٨]، وقال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الزُّمَر:٦٥]، وقال -تعالى-: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣]، وقال الله -تعالى-: في الحديث القدسي «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**». رواه مسلم.

فإذا وقع الشركُ في العبادة تضمن الشركَ في الربوبية والأسماء والصفات، وإذا وقع في الأسماء والصفات استلزم الشركَ في العبادة.

وقوله: «كالحدث إذا دَخَلَ في الطهارة».

يعني: أن الشرك إذا دخل في العبادة أفسدها كما أن الحدث يُفسد الطهارة، وذلك لما أخرجه الشيخان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَلَاةَ أَحَدِكُمْ إِذَا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ**».

ولما أخرجه مسلم وغيره عن ابنِ عُمَرَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَا تُقْبَلُ صَلَاةٌ بِغَيْرِ طُهُورٍ وَلَا صَدَقَةٌ مِنْ غُلُولٍ**».

ثم قال:

فإذا عَرَفْتَ أن الشركَ إذا خَالَطَ العبادةَ أفسدها وأحبط العملَ وصار صاحبُه من الخالدين في النار عرفتَ: أَنَّ أَهَمَّ ما عليك معرفةُ ذلك، لَعَلَّ الله أن يخلصك من هذه الشبكة، وهي الشرك بالله، " الذي قال الله -تعالى- فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]"، **وذلك بمعرفة أربعِ قواعدَ ذكرها الله -تعالى- في كتابه:**

أي: «**فإذا عرفت**» ما سبق بيانه من «**أن الشرك**» محبط للعمل، ولا ينفع عملٌ صاحبَه إذا كان قد أشرك بالله جل وعلا، بل لا ينفع العملُ صاحبَه «**إذا خَالَطَ**» الشركُ «**العبادةَ**» وتخللها!! فالشرك محبط للعمل ابتداء، ومحبط للعمل إذا خالطه، سواء كان أصغر أو أكبر، فإن كان أكبر فهو محبط للعمل كله، وإن كان أصغر فهو

محبط لنفس العمل، فإذا لم يتب المشرك من شركه ومات عليه كان «**مِنَ الخَالِدِينَ في النار**» نسأل الله النجاة والستر.

فإذا تبين لك ذلك «**عرفتَ**» أيها اللبيب «**أن أَهَمَّ**» وأولى «**ما**» فَرَضَ اللهُ «**عليك معرفةُ ذلك**» التوحيدِ وما يضاده من الشرك، ومعرفةُ أن الشرك محبط للعمل.

يعني: أن معرفة التوحيد، والعملَ به، ومعرفةَ ما يضاده من الشرك، والبعدَ عنه، أولى ما يَعتني به المرءُ، وأولُّ ما يتعلمه، فهو أول فرض على كل عبد.

وذلك أن الله -جل شأنه- ما خلق الخلق هملا ولا سدا، كما قال -سبحانه-: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧]، بل خلقهم لغاية، وهي أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، كما قال -تعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]. فتحتم حينئذ أن يكون معرفةُ ما يُتوقف عليه تحقيق هذه الغاية هو أولَّ فرض، كما في حديث معاذ حين أرسله النبي ﷺ إلى اليمن وفيه أنه قال له: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**».

وقوله: «**لَعَلَّ**» للترجي «**الله أن يخلصك**» أي: ينجيك ويسلمك «**من هذه الشبكة، وهي الشرك بالله**».

ومرد الشَّبْكِ في اللغة إلى التداخل والتخالط، **يُقَالُ**: "شَبَّكَ أَصَابِعَهُ تَشْبِيكًا" أدخل بعضَها في بعض، وَيُقَالُ: "بَيْنَ الْقَوْمِ شُبْكَةُ نَسَبٍ"، أَيْ مُدَاخَلَةٌ ومخالطة. وَمِنْ ذَلِكَ الشَّبَكَةُ، كذا قال الليث، وابن فارس.

وقد أطلق الشيخُ -رفع الله مقامه في أعالي الجنان- لفظَ الشبكةِ على الشركِ من وجهين:

الأول: أن الشرك يخالط العملَ ويدخلُه ويتخلله لدقته وكثرة أنواعه، كما أن الشبكة يدخل أسلاكها في بعض، ويخالط أحدها الآخر.

الثاني: أنَّ الشركَ محيط بصاحبه، كما أن الشبكة تحيط بمن فيها، كما قال -تعالى-: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة:٨١].

أي: من أشرك بالله وأحاطت به خطيئةُ الشركِ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون بسبب شركهم وكفرهم، **قال ابن عباس وأبو هريرة وغيرهما فيما أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير وغيرهما**: "الخطيئة هي الشرك"، فهو الذي يحيط بصاحبه، ولا يدع له مهربا، أما أهل التوحيد فلا تحيط بهم خطيئة.

وقوله: «الذي قال الله -تعالى- فيه: مبينا أنه أعظم ذنب، وأنه لا يغفره لمن مات عليه: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ** ﴾ [النساء:٤٨]"، فعلى المرء أن يسأل الله النجاة من الشرك، لعل الله أن يخلصه منه فيكون من الموحدين الناجين يوم القيامة «**وذلك**» الخلاص من الشرك «**بمعرفة أربعِ قواعدَ ذكرها الله -تعالى- في كتابه**» أي: في القرءان الكريم.

القاعدة الأولى:
«الكفار مقرون بتوحيد الربوبية»

أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مُقِرُّونَ بأن الله -تعالى- هو الخالقُ المُدَبِّـرُ، وأنَّ ذلك لم يُدْخِلْهُمْ في الإسلام، والدليل قوله -تعالى-: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس:٣١].

الشرح:

القَاعِدَةُ في اللغة: أَسَاسُ الشيءِ وأَصْلُهُ، وجمعها «**قَوَاعِدُ**»، ومنه قيل لأُسُسِ البيت قواعد، كما في قول- تعالى-: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة:١٢٧].

وفي الاصطلاح: قَضِيَّةٌ كُلِّـيَّـةٌ تَنْطَبِقُ على جزئيات كثيرة.

وقد أراد الشيخ بالقواعد هنا الأسسَ والأصولَ التي يُبنى عليها إسلام العبد ويُميز بهن المسلمَ من المشرك، فمن هذه القواعدِ أربعُ قواعد.

الأولى: «**أن تعلم**» تتقين «**أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله** ﷺ» ولم يُحَرِّمْ دِمَائَهُمْ ولا أَمْوَالَهُمْ «**مُقِرُّونَ**» مصدقون «**بأن الله -تعالى- هو الخالقُ الرَّازِقُ المُدَبِّـرُ المحي المميت**» **أي**: مصدقون بأفعال الله -جل وعلا- لا ينكرونها.

فالخالق: هو المتصف بصفة الخلق دون من سواه، الخالق لكل شيء، المُوجدُ له بعد أن لم يكن موجودا.

و«**الرزاق**» الذي يعطي جميع مخلوقاته وينفعهم بما يحتاجون إليه.

والرزق على نوعين: «**عام وخاص**».

فالعام: ما يشمل جميع المخلوقات، البر منهم والفاجر.

والخاص: ما يكون للمؤمنين من رزق طيب حلال، ورزق قلوب المؤمنين بما يصلحها من العلم والإيمان، ورزق أبدانهم بما يعينها على الطاعة.

«**والمُدَبِّـرُ**»: الذي يُصَرِّفُ أمرَ هذا الكونِ بحكمته، وينظمُه، ويجري الأمورَ بمشيته لتقع على الوجه المحمود، فلا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلطه المسائل.

«**والمحي**» الذي أحيا جميع المخلوقات، وسيُحييهم يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم، فيحيي الأجسام البالية بإعادة الأرواح إليها عند البعث، ويحيي القلوب بنور المعرفة، ويحيي الأرض بعد موتها؛ بإنزال الغيث، وإنبات الرزق.

«**والمميت**»، الذي يميت الأحياء.

أدلة ذلك:

قوله -تعالى-: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٣١].

أي: قل لهم يا محمد ﷺ: "من الذي يرزقكم من السماء والأرض.... فسيقولون": أي: الكفار بأن الله هو الرازق المالك المحي المميت المدبر فقل لهم: أفلا تتقون اللهَ بإفراده بالعبادة.

وقوله -تعالى-: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ..... وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [العنكبوت].

وقوله -تعالى-: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان:٢٥].

وقوله -تعالى-: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزُّخرُف:٩].

وقوله -تعالى-: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزُّخرُف:٨٧].

وقوله -تعالى-: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى

بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزُّمَر:٣٨].

وقوله -تعالى-: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [المؤمنون].

ومن الأدلة أيضا: الآيات التي وردت في أمر المشركين بتوحيد الله جل وعلا كلها في توحيد الله بالعبادة، وهي تستلزم النهي عن الإشراك به في العبادة، بل ما خلق الله الخلق إلا لعبادته كما سبق بيانه، وهذا أيضا يستلزم الأمر بالعبادة؛ لأنهم مخلوقون لها، من ذلك قوله -تعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة].

أي: اعبدوا الله الذي تعتقدون أنتم أنه الخالق لكم، والخالق للذين من قبلكم، ولا تشركوا به شيئا، وأنتم تعلمون أنه هو وحده من جعل لكم الأرض

فراشا، والسماء بناء، وأنه الرزاق المدبر، كيف تقرون بأنه الرب الخالق الرازق المدبر ثم تعبدون غيره؟!! ما هذا السفه؟

ولم يقل رسول لقومه: "**يا قوم أقروا بأن الله هو الخالق الرازق المدبر!!**" لأنهم لم يكونوا ينازعون في ذلك، وإنما كان يأمرهم بالعبادة، يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، كما قال -تعالى-: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ [النحل:٣٦].

وقوله -تعالى-: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وقوله -تعالى-: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ [الأعراف:٥٩].

وفي حديث معاذ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال النبي له حين بعثه إلى الْيَمَنِ: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ**» متفق عليه.

وعند البخاري (ح٦٨٤٢) قال النبي ﷺ: «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى**» فرادف بين لفظتي التوحيد والعبادة؛ لأن الخصومة كانت معهم في توحيد العبادة؛ إذ كانوا مقرين بأن الله هو الخالق الرزاق المدبر، فلفظا التوحيد والشرك إذا أُطْلِقَا في الشرع انصرفا غالبا إلى توحيد العبادة، والشرك في العبادة. فافهم.

ولذلك كان المشركون يقولون وهم يطوفون بالبيت: «**لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ**» أخرجه مسلم (ح ٢٨٧٢) عن ابن عباس.

فلم يكونوا يعتقدون أن هبل واللات والعزى تملك شيئا، أو أنها ترزقهم وتحيهم وتميتهم، بل ما كانوا يعتقدون أنها المتفردة بالعبادة، وإنما كانوا يقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله.

فقوله: «**مقرون**» بمعنى مصدقون، إذ لم ينكروا ذلك، فلم يجعلهم إقرارُهم بأن الله هو الخالق الرازق المدبر موحدين، **ولا يجوز أن يقال**: كانوا موحدين توحيد الربوبية؛ لأن أنواع التوحيد متلازمة، ولذلك قال -تعالى عنهم-: ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ [يوسف:١٠٦]. **أي**: يؤمنون به ربا خالقا رازقا مدبرا، ويشركون به في العبادة.

قال مجاهد: "إيمانهم: قولهم: الله خالقنا ويرزقنا ويميتنا. فهذا إيمان، مع شرك عبادتهم غيره".

وقوله : «وأنَّ ذلك لم يُدْخِلْهُمْ في الإسلام»

يعني: أن إقرارهم بأن الله هو الخالق الرزاق المالك المحي المميت المدبر لم يخرجهم من الكفر إلى الإيمان، ولم يدخلهم ذلك في الإسلام؛ لأنهم كانوا يُشركون به في العبادة.

وإن كنت في شك فانظر: هل يدخل الرجل في الإسلام إذا كان معتقدا أن الله هو

الخالق الرزاق المدبر، أم لا بد من أن يفرده -سبحانه- بالعبادة دون من سواه، **مثلا إن جاءك رجل نصراني يقول**: أنا أعتقد أن الله هو الخالق الرازق المدبر، فهل يكون مسلما؟ قطعا لا يكون مسلما: حتى يشهد أن لا إله إلا الله، **أي**: لا معبود حق إلا الله، وهذا ما جاءت به الرسل أقوامَهم، فتوحيد الربوبية مستقر في فطر الناس لا ينازع أحد من عقلاء الإنس في إثباته، بل كان إبليس نفسُه مقرًّا بأن الله هو الذي يحي ويميت، ولذلك: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ **قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ** ﴿٣٧﴾ **إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ** ﴿٣٨﴾ ﴾ [الحِجر:٣٨]، لكنه كفر وجحد طاعة الله وأبى أن يسجد لآدم.

فالإيمان بأفعال الله أمر مستقر فى نفوس البشر، لا ينازع فيه أحد من الناس كافرا كان أو مسلما، إلا شذاذا من بني آدم.

فعُلِمَ مما تقدم أن الإيمان بأن الله هو الخالق الرازق المدبر لا ينفع إلا إذا أفرد العبدُ ربه بالعبادة، فمجرد الإقرار بالربوبية لا يدخلُ الإسلامَ، فلا بد من الإيمان بأنه لا معبود حق إلا الله.

فمن أقر بالربوبية والأسماء والصفات لم يكن موحدا إلا إذا أفرد الله بالعبادة؛ لأن أنواع التوحيد الثلاثة متلازمة، لا يصح التوحيد إلا باجتماعها.

فكلمة التوحيد "**لا إله إلا الله**" تدل على معنى: "لا معبودَ حقٌّ إلا الله" بدلالة المطابقة، وتوحيدُ العبادةِ يتضمن توحيدَ الربوبية والأسماءِ والصفات، وتوحيدُ الربوبيةِ والأسماءِ والصفات يستلزم توحيدَ العبادة.

والشرك إذا وقع في العبادة تضمن الشركَ في الربوبية والأسماء والصفات، وإذا وقع في الأسماء والصفات استلزم الشركَ في العبادة.

وليس معنى أنهم مقرون بأن الله هو الخالق الزراق المدبر أن ذلك حصل منهم في كل مفردات الربوبية، أو أنهم لم يشركوا في الربوبية، بل من المشركين من أشرك بالله في الربوبية، فمنهم من كان يعتقد النفع والضر في معبوداته، ومنهم النصارى الذين جعلوه ثالثَ ثلاثة، وكشركِ طَوُائِفَ من اليهود، وشركِ المَجُوسِ القائلين بإسناد حوادثِ الخيرِ إلى النور، وحوادثِ الشرِّ إلى الظلمة، وَشِرْكِ عُبَّادِ الشمسِ، والقمرِ، والكواكب، وكشرك الفلاسفةِ القائلين بِقِدَمِ العالم، وشركِ الجهمية، وأهلِ وَحْدَةِ الوُجُودِ؛ كابن عَرَبِيٍّ، وَابْنِ سَبْعِينَ، وَالتِّلِمْسَانِيِّ، وابنِ الفارضِ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ المَلَاحِدَةِ والدهريين والطبيعين، ويَلتحقُ به من وجهٍ شركُ غلاةِ عُبادِ القبورِ، الذين يزعمون أن أرواحَ الأولياءِ تتصرف بعد الموت، فيقضون الحاجات، ويُفَرِّجُونَ الكُرُبَاتِ، وينصرون مَن دعاهم، ويحفظون مَنْ التجأ إليهم، وَلَاذَ بِجِمَاهُمْ، وكقول بعضهم: إن الأقطاب الأربعة يدبرون أمرَ الكونِ مع الله، ويتصرفون فيه، وينفعون ويضرون، وكقول بعضهم: الوَلِـيُّ يمكن أن يخلق، ويقول للشيء كن فيكون.

وهذا مما يبين لك أن معنى "**لا إله إلا الله**" هو "**لا معبود حق إلا الله**"؛ لأنه لو كان معناها "**لا خالق إلا الله**" أو" لا قادر على الاختراع إلا الله" كما يقول المتكلمون لكان مشركو قريش موحدين!! لأنهم يقرون بأن الله هو الخالق الرزاق المدبر، ولذلك قال لهم النبي: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون]، إذن أصل الخلاف معهم هي عبادة الله وحده دون من سواه، وهذا ما لم يكن يقر به المشركون، وهذا المعنى مع وضوحه وظهوره على أكمل وجه ضلت فيه فرق وأقوام، فسبحان الله.

فخلاصة القاعدة الأولى: أنَّ مَنْ أقر بربوبية الرب -جل وعلا- وأفعالِه، لم يكن موحدا حتى يفردَه بالعبادة، ويؤمنَ بأن له أسماءً حسنى وصفاتٍ عُلَـى، فمن أقرَّ بالربوبية فقط لم يأت بـ "لا إله إلا الله".

القاعدة الثانية:

« الكفار عبدوا آلهتهم بغرض القربة إلى الله »

أنهم يقولون: ما دعوناهم وتوجهنا إليهم إلا لطلب القربة والشفاعة، فدليل القربة قوله -تعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزُّمَر:٣].

ودليل الشفاعة قوله -تعالى-: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [يونس:١٨].

والشفاعة شفاعتان: شفاعة منفية، وشفاعة مُثْبَتة. فالشفاعة المنفية: ما كانت تُطْلَبُ من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، والدليل قوله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

والشفاعة المُثْبَتَةُ: هي التي تُطْلَبُ من الله، والشَّافِعُ مُكْرَمٌ بالشفاعة، والمَشْفُوعُ له مَنْ رَضِيَ اللهُ قولَه وعملَه بعد الإذن؛ كما قال -تعالى-: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

الشرح:

هذه القاعدة الثانية جواب سؤال للقاعدة الأولى، **أي إن قلتَ أيا اللبيب**: لماذا أشرك المشركون بالله مع أنهم يقرون بأن الله الخالق الرازق المدبر؟

الإجابة:

لأنهم يقولون: ما دعوناهم وتوجهنا إليهم إلا لطلب القربة أو الشفاعة!!

فبعد أن بين لك الشيخ -رحمه الله- الأصلَ الأولَ: "**وهو أن الكفار كانوا مقرين بربوبية الله -جل وعلا- في الجملة**"، **بمعنى**: أنهم لا ينكرون أن الله هو الخالق الرازق المدبر، أراد أن يبين لك بهذه القاعدة أصلا ثانيا يفرق به المسلمُ بين الموحد والمشرك: وهو أنهم لا يقرون بأن الله -جل وعلا- هو المستحق أن يفرد بالعبادة دون من سواه، وأنَّهم لم يكونوا يعبدون تلك المعبودات على وجه الاستقلال، ولا أنها هي التي تستحق العبادة لذاتها، **بل كانوا يقولون**: نعبد هذه المعبودات كي نتقرب بها إلى الله، أو أنها تشفع لنا عند الله، **ولذلك قال**: "**أنهم يقولون**": أي: الكفار" **ما دعوناهم وتوجهنا إليهم**" أي: لتلك المعبودات "**إلا لطلب القربة**" إلى الله، بأن نتخذهم واسطةً بيننا وبين الله "**والشفاعة**" أي: ولكي تشفع لنا عند الله.

فمراد المشركين من طلب القربة من الأنداد علوُّ المنزلة والرفعة عند الله.

ومرادهم من شفاعة الأنداد لهم عند الله العفوُ عما بدر منهم في حق الله جل وعلا!!

والفرق بين القربة والشفاعة: أن القربة أعم مطلقا من الشفاعة؛ إذ كلُّ شفاعةٍ قربةٌ من غير عكس.

والذي حمل المشركين على هذا الشرك هو تقليدُ الآباء والأجداد، كما قال -تعالى-: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**﴾ [المائدة:١٠٤]. وقال -تعالى-: ﴿**بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الزُّخرُف:٢٢].

وقال -تعالى-: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾**﴾ [الأنبياء].

وقال -تعالى-: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾**﴾ [الشعراء].

إذن كانوا يتقربون بهذه المعبودات إلى الله كما فعل آباؤهم وأجدادهم، ولم يكونوا يعبدونها لذاتها على وجه الاستقلال، **فدليل القربة قوله -تعالى-**: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ**﴾ [الزُّمَر:٣].

«**الذين**»: اسم موصول مبني في محل رفع مبتدإ عائد على المشركين، وخبره قول محذوف، وجملة: «**ما نعبدهم ....**» في محل نصب مفعول به مقول القول المقدَّرِ، **أي**: يقولون ما نعبدهم. وحذف القول" كثير في لسان العرب، ويؤيده قراءة ابن مسعود: "قالوا ما نعبدهم" بإظهار القول، **أو**: في محل نصب مفعول مطلق، **يقولون قولا** ألا وهو: «**ما نعبدهم...**» والأول أظهر.

فالمعنى:

المشركون الذين "**اتخذوا من دونه**" من دون الله "**أولياء**" يتولونهم بعبادتهم ودعائِهم من دون الله، يقولون معتذرين عن هذا الفعل الشنيع، والذنب القبيح: "**ما نعبدهم**" أي: ما نعبد تلك المعبودات "**إلا ليقربونا إلى الله زلفى**" قُرْبَةً ومَنْـزِلَةً ومكانةً، فترفعُ حوائجَنَا إليه، وتشفعُ لنا عنده. فـ "**زُلْفَى**" مفعولٌ مطلقٌ مؤكِّدٌ من غير جنس المصدر؛ لأنه مرادف له في المعنى، والتوكيد به أبلغ مما لو كان من جنس الفعل؛ لاشتماله على معانٍ متعددة مترادفة، لا كالقربة.

ويجوز أن يكون الموصول في قوله -سبحانه-: «**والذين اتخذوا**» عائدا على ما عُبِدَ من دون الله من الملائكة، والصالحين، وعُزَيْرٍ، واللاتِ، والعُزَّى، ويكون فاعلُ "**اتَّخَذَ**" هو المشركين، ويكون مفعولُ "**اتخذ**" الأول منويا عائدًا على الموصول، والمفعولُ الثاني عائدا على "**أولياءَ**". فيكون التقدير حينئذ: «**والذين اتَّخذهم المشركون أولياءَ**» يقول فيهم المشركون معتذرين عن فعلهم القبيح: «**ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**» إلا أن الأول أظهر؛ لأن الأخير يحتاج إلى حذف الضمير العائد على "**الذين**"، ويكون ضمير الفاعل في اتخذوا عائدًا على غير مذكور، والأصل: أن عدم التقدير -كما هو مقرر- أولى من التقدير.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ بين المشركين بعضهم بعضا ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من طرائقهم فِي عِبَادَةِ معبوداتهم، بأن يدخلهم جميعا جهنم، أو يحكم بينهم وبين المؤمنين من إنسٍ وجنٍّ ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مِنْ أَمْرِ دينهم، فَيَدْخُل الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ برحمته وفضله، وَالْكَافِرِينَ النَّارَ بعدله، وهذا الأظهر بدليل قوله -تعالى-: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ [الأنعام:١٢٨].

وقوله -تعالى-: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [سبأ].

ثم بين -سبحانه-: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: لا يوفق إلى الهداية من هو كاذب في نسبة الشريك والوَلَدِ إليه، والمراد بالكاذب المشركون الذين اتخذوا من دونه أولياء......، ولا يهدي مَنْ هو كَفَّارٌ يَجْحَدُ بآياته وحُجَجِهِ، ويعبد غيرَهُ معه، فهو وحده -سبحانه- يهدي من يشاء ممن يستحق الهداية، ويضل من يشاء ممن يستحق الإضلال، كما قال -تعالى-: ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [فاطر:٨].

قال ابن جرير (٢١/ص٢٥١):

"والذين اتخذوا من دون الله أولياء يَتَوَلَّوْنَهُم، ويعبدونهم من دون الله، يقولون لهم: ما نعبدكم أيها الآلهة إلا لتقربونا إلى الله زُلْفَى، قربةً ومنزلةً، وتشفعوا لنا عنده في حاجاتنا، وهي فيما ذُكر في قراءة أبي: "ما نَعْبُدُكُمْ"، وفي قراءة عبد الله: " (قالوا ما نعبدهم)".

ثم ذكر بإسناده عن مجاهد، أنه قال: "قريش تقوله للأوثان، ومن قبلهم يقوله للملائكة ولعيسى ابن مريم ولعزَير".

وعن قتادة: "قالوا: ما نعبد هؤلاء إلا ليقرّبونا، إلا ليشفعُوا لنا عند الله".

وعن السديّ: قال هي منزلة.

وعن ابن زيد: قالوا هم شفعاؤنا عند الله، وهم الذين يقربوننا إلى الله زلفى يوم القيامة للأوثان، والزلفى: القُرَب.

وقال: **(إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)** يقول تعالى ذكره: إن الله يفصل بين هؤلاء الأحزاب الذين اتخذوا في الدنيا من دون الله أولياء يوم القيامة، فيما هم فيه يختلفون في الدنيا من عبادتهم ما كانوا يعبدون فيها، بأن يصليهم جميعا جهنم، إلا من أخلص الدين لله، فوحده، ولم يشرك به شيئا ..... **(إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي)** إلى الحق ودينه الإسلام، والإقرار بوحدانيته، فيوفقه له **(مَنْ هُوَ كَاذِبٌ)** مفترٍ على الله، يتقول عليه الباطل، ويضيف إليه ما ليس من صفته، ويزعم أن له ولدا افتراءً عليه، **(كَفَّارٌ)** لِنِعَمِهِ، جَحُودٌ لِرُبُوبِيَّتِهِ.

□

ثم قال الشيخ:

ودليل الشفاعة قوله -تعالى-: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس:١٨].

الشَّفَاعَةُ لُغَةً [١٩]: انْضِمَامُ الشيءِ إلى الشيءِ ناصرًا له، وسائلًا عنه، وأكثرُ ما يُستعملُ في انضمامِ مَنْ هو أعلى حُرْمَةً وَمَرْتَبَةً إلى مَنْ هُوَ أَدْنَى، **والشَّفْعُ**: الزَّوْجُ، وهو خِلافُ الوَتْرِ. **والشفاعة**: مصدر «**شَفَعَ يَشْفَعُ شَفْعًا وَشَفَاعَةً**»، **وقيل**: اسم مصدر".

والشافع والشفيع: هو الطالب لغيره، والمعينُ غَيْـرَهُ، وجمعه «**شُفَعَاءَ**» مثل «**كريمٍ**» و«**كُرَمَاءَ**».

قال الطِّرِمَّاحُ:

وَيُحْدِثُ قَلْبِي كُلَّ يَوْمٍ شَفَاعَةً ** لَهُنَّ، ومَا لِي عِنْدَهُنَّ شَفِيعُ

ومرد الشِّينِ وَالْفَاءِ وَالْعَيْنِ كما قال ابن فارس في "المقاييس": إلى "مُقَارَنَةِ الشَّيْئَيْنِ. مِنْ ذَلِكَ الشَّفْعُ خِلَافُ الْوَتْرِ. تَقُولُ: كَانَ فَرْدًا فَشَفَعْتُهُ".

١٩- العين (١/٢٦٠)، مقاييس اللغة (٣/٢٠١)، مفردات الراغب (ص٢٩٠)، القاموس المحيط (ص٩٤٨)، لسان العرب (٤/٢٢٨٩)، تاج العروس (٢١/٢٤٩).

والشَّفَاعَةُ نَوْعَانِ: «شَرْعِيَّةٌ، وَشِرْكِيَّةٌ» أو كما قال الشيخ: «منفية ومثبتة»، **فالمنفية**: شركية، **والمثبتة**: شرعية.

فالشفاعة المنفية كما قال الشيخ: ما كانت تُطْلَبُ من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، والدليل قوله -تعالى-: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ** ﴾ [البقرة:٢٥٤].

فقوله: «**ما كانت تُطْلَبُ من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله**»، كمغفرة الذنب، وقضاء الحوائج، فهذا لا يقدر عليه إلا الله، فطلب الشفاعة من الله توحيد، وطلبها من غيره، كطلبها من الأموات شرك أكبر، أما طلب شيء من إنسان حي حاضر قادر في الدنيا أو في عرصات يوم القيامة فجائز.

فالأول: كما لو قلت لغيرك ممن هو حاضر قادر: اسقني ماءً، **والثاني**: كما في حديث الشفاعة العظمى، وسوف يأتي بيانه.

والشفاعة المُثْبَتَةُ: هي التي تُطْلَبُ من الله، والشَّافِعُ مُكْرَمٌ بالشفاعة، والمَشْفُوعُ له مَنْ رَضِيَ اللهُ قولَه وعملَه بعد الإذن؛ كما قال -تعالى-: ﴿**مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ**﴾ [البقرة:٢٥٥].

فالشفاعة الشرعية:

أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ رَضِيَ عَنْهُ بالتَّوَسُّطِ لِآخَرَ مَرْضِيٍّ عَنْهُ أيضا لِجَلْبِ مَنْفَعَةٍ، أَوْ لِدَفْعِ مَضَـرَّةٍ.

وللشفاعة الشرعية شرطان مجملان، وثلاثة شروط مفصلة:

أما الإجماليان فهما: إذن الله للشافع، ورضاه عن المشفوع له.

وأما المفصلة:

فالأول منها: إِذْنُ اللهِ في الشفاعة، سوء أَذِنَ هو -سبحانه-، أو طُلبتِ الشفاعةُ منه، **كأن تقول**: اللَّهُمَّ شَفِّعْ فِيَّ نبيَّكَ ﷺ، إذن لا بد من إِذْنِ الله جل وعلا في الشفاعة، كما قال -تعالى-: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]. **أي**: من هذا الذي يشفع عنده إلا بإذن منه سبحانه؟ لا أحد.

فَـ "**مَنْ**": اسم استفهام إنكاريٍّ مبني في محل رفع مبتدإ، يُراد منه نفي الشفاعة إلا بإذن الله جل وعلا، ودليل ذلك دخول «**إلا**» في قولِه «**إلَّا بإذنه**».

و "**ذا**" اسم إشارةٍ في محل رفع خبر.

و "**الذي**" اسم موصول في محل رفع نعت لاسم الإشارة، أو بدل منه.

عنده: جار ومجرور متعلق بمحذوف صلة الذي.

ويجوز أن يكون "**مَنْذَا**" مركبا في محل رفع مبتدإ؛ كـ "**ماذا**"، خبره الموصول. والأول أحسن.

و "**إلا**" استثناءٌ مفرَّغ. "**بإذنه**" الباءُ للمصاحبةِ.

فالمعنى:

لا يشفع أحدٌ عند الله مطلقا، سواء كان ملكا، أو نبيا، أو صالحا، إلا بإذن منه سبحانه، وكان هذا ردًّا على المشركين، حيث زعموا: أن معبوداتِهم من الأصنام وغيرِها تشفع لهم عند الله، فبين -سبحانه- أنه لا يشفع أحدٌ عنده إلا بإذنه سبحانه.

والثاني: رِضَى اللهِ عن الشافع، ودليل الرضى عن الشافع قوله -تعالى-: ﴿**وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ**﴾ [النجم:٢٦]، وقال -تعالى-: ﴿**يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا**﴾ [طه:١٠٩].

وهذا يعني أن الشافع مُكْرَمٌ من الله بشفاعته في غيره، فليس هو شريكًا مع الله كما يعتقد المشركون، بل إن الله -جل وعلا- رضي عنه، وأذن له، وتفضل عليه وأكرمه بأن يشفع لغيره، فيُظْهِرُ حينئذ -سبحانه- فضلَه على المشفوعِ له، ويثيبُه على شفاعته، كما عند البخاري (ح ١٣٤٢) من حديث أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى عَنْ أَبِيهِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ أَوْ طُلِبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ قَالَ: «**اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا**» وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا شَاءَ».

الثالث: رِضَى اللهِ عن المُشْفُوعِ له؛ كما قال تعالى-: ﴿**وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ**﴾ [الأنبياء:٢٨]. أما الكافرون فلم يرض الله عنهم، لذا لا تنفعهم حينئذ شفاعة أحد، كما قال -سبحانه-: ﴿**فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ**﴾ [المدَّثر:٤٨]. بل لا يجدون مَنْ يشفع لهم يومئذ، حتى إنهم ليقولون: ﴿**فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ**﴾ [الشعراء:١٠٠]. وقال -تعالى-: ﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ**﴾ [الروم:١٣]، فبين -سبحانه- أن هذه الآلهة لا تشفع لهم البتة. أما أبو طالب عم النبي ﷺ فتخفيف العذاب عنه خاص به كما سيأتي.

ولم يذكر الشيخ المصنف شرطَ الإذن عن الشافع والمشفوع؛ لأن رضاه -سبحانه- عن المشفوعِ له يتضمن الإذنَ للشافع.

والشفاعة من حيث الغرض نوعان:

الأول: أن تكون في طَلَبِ منفعةٍ؛ كشفاعتِهِ ﷺ لأهل الجنة أن يدخلوها؛ كما أخرج مسلم (ح٥٠٦) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ فِي الْجَنَّةِ وَأَنَا أَكْثَرُ الأَنْبِيَاءِ تَبَعًا**».

وأخرج مسلم (ح٥٠٧) عن أنس أيضا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**آتِى بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ**».

والثاني: أن تكون الشفاعة في دفع مضرة، كإخراج عُصَاةِ الموحدين من النار؛ كما في حديث الرؤيا الطويل، وفيه: «**فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ**». متفق عليه.

وللبخاري عن أبي هريرة: «**حَتَّى إِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنْ الْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ النَّارِ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ مِمَّنْ كَانَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوهُمْ فَيَعْرِفُونَهُمْ بِعَلَامَةِ آثَارِ السُّجُودِ وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ ابْنِ آدَمَ أَثَرَ السُّجُودِ**».

وأخرج الترمذي (ح ٢٨٠٤) عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَيَخْرُجَنَّ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِى مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَتِي يُسَمَّوْنَ الْجَهَنَّمِيُّونَ**» بالرفع على الحكاية.

وهذه الشفاعةُ يُنكرها المعتزلةُ والخوارجُ؛ لأنهم يعتقدون أَنَّ مَنْ دَخَلَ النارَ مِنْ عُصَاةِ المُوَحِّدِينَ لا يخرجُ منها، فَكَذَّبُوا وَحَرَّفُوا النصوصَ المُحْكَمَاتِ.

أما شفاعة مخلوق لمخلوق في أمر من أمور الدنيا فمردها إلى الأحكام الخمسة.

والشفاعة الشرعية تنقسم إلى قسمين: «**عَامَّةٍ، وَخَاصَّةٍ**».

فالعامة تشمل الأنبياءَ والملائكةَ والصالحين، كَشَفَاعَتِهِم في عصاة الموحدين أن يخرجوا من النار، والخاصةُ إنما هي للرسول ﷺ، **وهي نوعان**:

الأول: الشفاعة العظمى في أهل الموقف أن يُقْضَى بينهم؛ كما في حديث الشفاعة المتفقِ عليه، وفيه: «أَنَّ أهلَ المُوْقِفِ يأتون آدَمَ فيذكر خَطِيئَتَهُ، ثم نُوحًا فيذكرُ خَطِيئَتَهُ، ثم إِبْرَاهِيمَ فيَذْكُرُ لَهُمْ خَطَايَاهُ الَّتِي أَصَابَهَا، ثم موسى فيَذْكُرُ لَهُمْ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ، ثم عيسى فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَلَكِنِ ائْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ عَبْدًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فيقول النبي ﷺ: «**فَيَأْتُونِ فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ لَهُ سَاجِدًا فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدَعَنِي ثُمَّ يُقَالُ لِي ارْفَعْ مُحَمَّدُ وَقُلْ يُسْمَعْ وَسَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ... الحديث**».

ومنها شفاعتُهُ ﷺ في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة.

الثاني: شفاعةٌ أخصُّ من السابقة، وهي شفاعتُهُ ﷺ لِعَمِّهِ أبي طالبٍ أن يُخَفَّفَ عنه العذاب؛ فقد أخرج الشيخان عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ قَالَ: «**نَعَمْ هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**».

والشفاعة الشركية:

هي أن يختل شرطٌ من شروطِ الشفاعةِ الشرعية، وهي ما يعتقده المشركون في آلهتهم، من أنها تُقَرِّبُ إلى الله، وأنها تشفعُ لهم عنده، وقد كذبهم اللهُ -سبحانه- وَحَكَمَ عليهم بأنهم مشركون؛ **قال الله -تعالى-:** ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [يونس:١٨].

فإن قال قائل: لماذا الشفاعة غير الشرعية شركٌ أكبر؟

قلت: لأن الشفاعة طلبٌ، سواء كان الطلب لتحصيل منفعة، أو لدفع مضرة، والطلب عبادةٌ؛ لأنه دعاءٌ. فمن طلبها من غير الله فقد اتخذ هذا الشفيعَ شريكا مع الله.

قال ابن تيمية في " الصَّفَدِيَّة " (٢/٢٩١):

"وذلك أنه من يشفع عنده بغير إذنه كان الشافع شريكا له، ولهذا سُمِّيَ الشفيعُ شفيعا لأنه يشفع للطالب؛ كما قال تعالى: {**مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا**} (سورة النساء ٨٥) فكل من أعان غيرَهُ على أمر فهو شافعٌ له، والشافع عند غيره تُؤَثِّرُ فيه حركةٌ تغيرُ اختيارَهُ، ويكون شريكا له في المطلوب، والله مُنَـزَّهٌ عن ذلك كُلِّهِ".

وقال ابن القيم في "إغاثة اللهفان" (١/٢٢٠):

في "قوله -تعالى-: {**مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ**} [يونس: ٣]، وقوله -تعالى-: وقال: {**مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعَ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِه**} [البقرة: ٢٥٥] فالشفاعة بإذنه ليست شفاعةَ مَنْ دُونَهُ، ولا الشافعُ شفيعَ مَنْ دُونَهُ، بل شَفِيعٌ بِإِذْنِهِ.

والفرق بين الشفيعين كالفرق بين الشريك والعبد المأمور.

فالشفاعة التي أبطلها الله: شفاعةُ الشريك، فإنه لا شريك له، والتي أثبتها: شفاعةُ العبدِ المأمور الذي لا يَشْفَعُ ولا يتقدمُ بين يدي مَالِكِهِ حتى يأذنَ له. ويقول: اشفع في فلان. ولهذا كان أسعدَ الناس بشفاعةِ سيدِ الشفعاء يومَ القيامة أهلُ التوحيد، الذين جردوا التوحيدَ وَخَلَّصُوهُ مِنْ تَعَلُّقَاتِ الشرك وشَوَائِبِهِ، وهم الذين ارتضى اللهُ سبحانه.

قال تعالى: {**وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لَمِنِ ارْتَضَى**} [الأنبياء: ٢٨]، وقال: {**يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحمنُ وَرَضِى لَهُ قَوْلا**} [طه: ١٠٩].

فأخبر أنه لا يحصل يومئذ شفاعةٌ تنفعُ إلا بعد رِضَاءِ قولِ المشفوع له، وإِذْنِهِ للشافع فيه، فأما المشركُ فإنه لا يرتضيه، ولا يرضى قولَهُ، فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه، فإنه سبحانه عَلَّقَهَا بأمرين: رِضَاهُ عن المشفوع له، وإذنِهِ للشافع ورضاه عنه، فما لم يوجد مجموعُ الأمرين لم توجدِ الشفاعة".

فَمَنْ أرادَ الشفاعةَ فَلْيَطْلُبْهَا من الله -جل وعلا- بتحقيق التوحيد، لا باتخاذ الوسائط؛ فقد أخرج البخاري في "صحيحه" (ح٩٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ **«أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أو مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ»**.

فمن اعتقد أنه لا يُتوصل إلى الله إلا بدعاء تلك الوسائط، سواء أكانت مَلَكًا، أم نبيا، أم وليا، أم غيرَ ذلك؛ كأن يعتقدَ أنهم أقربُ إلى الله منه، وليس هو بأهلٍ لأن يُبَاشِرَ عِبَادَةَ اللهِ، أو أنهم يرفعون شكواه إلى الله؛ كما يَرْفَعُ الوُزَرَاءُ شَكْوَى الناسِ إلى المُلوك، أو أنهم يشفعون له عند الله إذا طلب ذلك منهم، أو يتوكل عليهم، أو يسألَهُمْ جلبَ المنافع ودفعَ المضار؛ **كأن يقول**: يا بدوي اشفع لي عند الله، **أو**: يا رسول الله قَرِّبْنِي إلى الله، **أو**: اذكرني عند ربك بخير، **أو**: كن سببا في شفائي، ... إلخ فقد أشرك بالله جل وعلا، وشبه الخالقَ بملوك الدنيا، وقاسه بهم؛ إذ أن ملوك الدنيا لا يُوصل إليهم إلا بشفعاءَ، ووزراء، يرفعون إليهم حوائجَ الرعايا، وهذا القياس من أفسد الأقيسة؛ لأن الله -جل وعلا- منزه عن ذلك كله، وهو -سبحانه- لا يحتاج لوسيط؛ لأنه يسمع عباده، ويعلم أحوالَهم، وحوائجَهُم، قريبٌ منهم، وهو -سبحانه- لم يأذن لهؤلاء بالشفاعة، **قال الله -تعالى-**: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ ﴾ [يونس:١٨].

فبين اللهُ -سبحانه- بطلانَ قولِهِمْ وأنهم مشركون عابدون لتلك الوسائط؛ **إذ قال:** ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٨].

وقال -تعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ فَقَصرَ المشركون فعلَهم على مجرد التقرب إلى الله بهذه الوسائط، لِظَنِّهم أَنَّ عِبَادَةَ تلك الوسائطِ من الْأَصْنَامِ والصالحين والملائكة تقربهم إلى الله، وتشفعُ لهم عِنْدَه، وهو ما يقولُهُ مشركو زمانِنَا من عُبَّادِ القبور، فَبَيَّنَ اللهُ أنهم كفارٌ كاذبون في دعواهم؛ إذ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزُّمَر:٣]. فكيف بمن يتخذ الطواغيتَ وسائط؟

فالواجب على العبد أن يدعو اللهَ بلا واسطة، فإن الله سميعٌ قريبٌ؛ قال الله -سبحانه-: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦]، وقال -سبحانه-: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود:٦١]، وقال: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، وقال -سبحانه-: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ﴾ [غافر:٦٠].

أما هذه الوسائطُ التي يعبدها هؤلاء المشركون فلا تنفعُهُم ولا تضرهم؛ لِقَوْلِهِ تعالى-: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس:١٨].

وقولِهِ -سبحانه-: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [سبأ:٤٠].

وقولِهِ-سبحانه-: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ﴾ [الفرقان:٥٥].

وقولِهِ-سبحانه-: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء:٥٦].

وقولِهِ -سبحانه-: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان:٣].

وقولِهِ-سبحانه-: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد:١٦].

ولا تَمْلِكُ هذه الوسائطُ لهم شيئا؛ قال الله -سبحانه-: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣].

بل لا يسمعون مَنْ دَعَاهُمْ؛ قال الله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤].

وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف].

وربما كانتِ الواسطةُ بِدْعِيَّةً غيرَ مكفرةٍ؛ كالتوسل بجاه الأنبياء والصالحين، أو أن يعتقدَ أن الصلاةَ بجوار فلانٍ الصالحِ سببٌ في قبولِ صلاتِهِ دون أَنْ يَدْعُوَهُ، فهذا وشِبْهُهُ وسيلةٌ إلى الشرك الأكبر.

وأما الوَاسِطَةُ الشرعية فهم رسلُ اللهِ وأنبياؤهُ وملائكتُهُ، ومعنى كونهم واسطةً بين الله وبين خلقه أنه لا يُعْرَفُ دينُ اللهِ إلا برُسُلِهِ، فهذه واسطة **مُجمع** عليها، لا يُنكرها إلا كافرٌ زنديق.

قال ابن تيمية في "الواسطة بين الحق والخلق" (ص٧، ٨):

"قال تعالى- ﴿**وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**﴾، وقال -تعالى-: ﴿**إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**﴾. ومِثْلُ هذا في القرءان كثير، وهذا ما أجمع عليه جميعُ أهلِ المِلَلِ من المسلمين واليهودِ والنصارى، فإنهم يُثْبِتُونَ الوسائطَ بين الله وبين عباده، وهم الرسل الذين بَلَّغُوا عن الله أَمْرَهُ وَخَبَـرَهُ، قال -تعالى-: ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾. ومَنْ أنكر هذه الوسائطَ فهو كافر بإجماع أهل المِلَلِ".

إلى أَنْ قال:

"فهذه الوسائطُ تُطَاعُ وتُتَّبَعُ ويُقْتَدَى بها؛ كما قال -تعالى-: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾، وقال -تعالى-: ﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**﴾".

وقال القرطبي في تفسير (سورة الكهف: الآيات ٧٩ الى ٨٢):

"وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَقَدْ حَصَلَ الْعِلْمُ الْقَطْعِيُّ، وَالْيَقِينُ الضَّرُورِيُّ وَاجْتِمَاعُ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ عَلَى أَنْ لَا طَرِيقَ لِمَعْرِفَةِ أَحْكَامِ اللَّهِ -تَعَالَى- الَّتِي هِيَ رَاجِعَةٌ إِلَى أَمْرِهِ ونَهْيِهِ، ولا يُعْرَفُ شَيْءٌ مِنْهَا إِلَّا مِنْ جِهَةِ الرُّسُلِ".

فعلم مما سبق أنَّ أصل الشرك، وسببَ وجودِهِ شيئان:

الأول: الغُلُوُّ في الصالحين.

الثاني: اتخاذُهُمْ شُفَعَاءَ ووسائطَ عند الله، ويبين لك ذلك أكثر ما أخرجه البخاري (ح ٤٥٣٩) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قال: "صَارَتْ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ"، يريدُ ابنُ عباسٍ آلهةَ قومِ نوح الواردةَ في قولِهِ -تعالى-: ﴿**وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا**﴾ [نوح:٢٣]. قال: "**هي أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ**".

أقسام الناس في الشفاعة

انقسم الناس في الشفاعة إلى أقسام ثلاثة:

القسم الأول: من أنكرها مطلقا، وهم بعض المتكلمين، ومنهم من أنكر شفاعة النبيين في عصاة الموحدين، وهم الخوارج والمعتزلة، وذلك لمذهبهم الفاسد في الوعيد.

القسم الثاني: من أثبتها مطلقا وغالى في إثباتها، وهم المشركون قديما وحديثا، كالنصارى، والروافض، وعباد القبور، وغيرهم، وهؤلاء جميعا يعتقدون تصرفَ المستشفع به مطلقا، ويطلبون منه الشفاعة.

القسم الثالث: أهل السنة والجماعة، وهم الذين هداهم الله فجعلهم وسطا على النحو السابق ذكره.

خلاصة القاعدة الثانية:

١- أن المشركين لم يكونوا يعبدون تلك المعبودات على وجه الاستقلال، ولا أنها هي التي تستحق العبادة لذاتها، **بل كانوا يقولون**: نعبد هذه المعبودات كي نتقرب بها إلى الله، أو أنها تشفع لنا عند الله.

أما طلبهم القربة من الآلهة فبين اللهُ -سبحانه- بطلانَه من وجهين:

الأول: أن تقربهم إلى الله بهذه الآلة باطل، وأن آلهتهم لا تقربهم إلى الله بل تبعدهم عنه؛ لأنه لا واسطة بين الله وبين خلقه.

الثاني: أنهم كاذبون في دعواهم نسبةَ الولي الناصرِ والمعينِ لله، وبين -سبحانه- أنه لا وليَّ له، ولا معينَ له، ولا ناصرَ له.

وهذه الشبهة بعينها هي شبهة مشركي زماننا من عباد الأوثان والموتى.

وأما طلبهم الشفاعة من آلهتهم فبين الله -سبحانه- بطلانَه من ثلاثة أوجه:

الأول: أن هذه الآلهة لا تشفع لهم البتة؛ لأنهم لا يملكون الشفاعة، وأن الشفاعة لله وحده سبحانه.

الثاني: أنه لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه سبحانه.

الثالث: أن المشركين لا تنفعهم شفاعة أحد البتة.

٢- أن الشفاعة على نوعين: «**مثبتة، ومنفية**».

فالشفاعة المنفية: ما كانت تُطْلَبُ من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

والشفاعة المُثْبَتَةُ: هي التي تُطْلَبُ من الله، والشَّافِعُ مُكْرَمٌ بالشفاعة، والمَشْفُوعُ له مَنْ رَضِيَ اللهُ قولَه وعملَه بعد الإذن.

ثم كل من الشفاعة المثبتة والمنفية تارة تكون مثبتةً للشافع والمشفوع له بعد إذن الله ورضاه، وتارة تكون منفيةً عن الشافع والمشفوع له.

فتصير أنواع الشفاعة أربعة:

- شفاعة منفية عن الشافع، كنفي أن آلهة المشركين تشفع للمشركين.
- شفاعة منفية عن المشفوع له، كنفي الشفاعة عن الكافرين.
- شفاعة مثبتة للشافع بعد أذن الله ورضاه، كشفاعة النبي ﷺ.
- شفاعة مثبتة للمشفوع له، كشفاعته ﷺ لأهل الكبائر من أمته.

القاعدة الثالثة:

«ظَهَرَ النبيُّ ﷺ على أناس متفرقين في عبادتهم» وقاتلهم جميعا على ذلك

أن النبي ﷺ ظَهَرَ على أناس متفرقين في عبادتهم، منهم مَنْ يَعْبُدُ الملائكةَ، ومنهم مَنْ يَعْبُدُ الأنبياءَ والصالحين، ومنهم مَنْ يَعْبُدُ الأشجارَ والأحجارَ، ومنهم مَنْ يَعْبُدُ الشمسَ والقمرَ، وقاتلهم رسولُ الله ﷺ ولم يُفَرِّقْ بينهم، والدليل قوله -تعالى-: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩].

فدليل الشمس والقمر قوله -تعالى-: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ [فُصِّلَت:٣٧].

ودليل الملائكة قوله -تعالى-: ﴿ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًا ﴾ [آل عمران:٨٠].

ودليل الأنبياء قوله -تعالى-: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾ [المائدة:١١٦].

ودليل الصالحين قوله -تعالى-: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء:٥٧].

ودليل الأشجار والأحجار قوله -تعالى-: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠﴾ [النجم]، **وحديث أبي واقد الليثي -رضي الله عنه- قال: «خرجنا مع النبي ﷺ إلي حُنَيْنٍ ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سِدْرَةٌ يعكفون عندها وينوطون بها أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ... الحديث».**

الشرح:

بعد أن بين الشيخ أن المشركين كانوا مقرين بوجود الله وأفعاله؛ كالخلق والرزق والتدبير وغير ذلك، وبين أنهم ما كانوا يعبدون معبوداتهم على وجه الاستقلال، ولا أنها هي التي تستحق العبادة وحدها، بل كانوا يتقربون بها إلى الله، ويعتقدون أنها تشفع لهم عند الله أراد أن يبين لك أنهم تفرقوا في معبوداتهم، فمنهم مَنْ عَبَدَ الملائكةَ، ومنهم مَنْ عَبَدَ الأنبياءَ والصالحين، ومنهم مَنْ عَبَدَ الأشجارَ والأحجارَ، ومنهم مَنْ عَبَدَ الشمسَ والقمرَ والنجومَ، بل منهم من عَبَدَ ذلك كله، أو جمع بين أكثر من معبود، وقد قاتلهم رسولُ الله ﷺ جميعا ولم يُفَرِّقْ بينهم؛ مع أن غرضهم جميعا من ذلك هو التقرب إلى الله بهذه المعبودات، وأن تشفع لهم عنده، ومع هذا قاتلهم رسول الله ﷺ جميعا؛ لأنهم اشتركوا جميعا في أمر واحد وهو عبادة غير الله، قاتلهم رسول الله وإن اختلفت معبوداتهم من حيث المنزلة؛ نعم ليس الأنبياء والملائكة والصالحون من حيث المنزلة كالأشجار والأحجار، إلا أنه لا

نظر إلى مكانة المعبود ومنزلته، إنما النظر إلى أنه عُبِدَ مع الله، فمن عبد ملكا، أو رسولا، أو نبيا، أو صالحا كان كمن عبد حجرا أو شجرا، كلهم مشرك.

إذن عبادة المشركين لم تكن محصورة في الأشجار والأحجار كما يظن كثير من الجهال، ولذلك جميع النصوص الواردة في التحذير من الشرك جاءت بلفظ العموم؛ كقوله -تعالى-: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦]، فشيئا نكرة في سياق النهي تعم كلَّ شركٍ وكلَّ شريك، ملكا، كان أو نبيا، أو رسولا، أو جِنًّا، أو صالحا، أو حجرا، أو شجرا.

أما أهل التوحيد فيعبدون إلها واحدا، هو الله الواحد القهار، قال -تعالى-: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف:٤٠].

فقوله: «أن النبي ﷺ ظَهَرَ» أي خرج برسالته **«على أناس متفرقين في عبادتهم»** أي في معبوداتهم **«منهم مَنْ يَعْبُدُ الملائكةَ، ومنهم مَنْ يَعْبُدُ الأنبياءَ والصالحين، ومنهم مَنْ يَعْبُدُ الأشجارَ والأحجارَ، ومنهم مَنْ يَعْبُدُ الشمسَ والقمرَ وقاتلهم رسولُ الله ﷺ ولم يُفَرِّقْ بينهم»** لأنهم اتفقوا جميعا على غرض واحد ومقصد واحد وهو عبادة غير الله.

والدليل، أي ودليل أن النبي ﷺ قاتل المشركين ولم يفرق بينهم على اختلاف معبوداتهم قوله -تعالى-: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩]، وقوله -تعالى- ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٣].

وجه الدلالة قوله -تعالى-: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ﴾، وهو ظاهر العموم، لم يستثن منهم أحدا، **ولم يقل**: "واقتلوهم"؛ لأن القتل أخص من القتال؛ إذ ليس كلُّ كافرٍ حلالَ الدم والمال، فمن الكفار من يُقاتل، ومنهم من لا يُقاتل؛ فهم على نوعين:

النوع الأول: معصومو الدمِ والمال إذا لم ينقضوا العهد، **وهم ثلاثة أصناف**:

أولهم: المعاهدون، الذين بين المسلمين وبينهم عهد على ترك القتال، وقد عاهد النبي ﷺ كفار مكة على ترك القتال في صلح الحديبية.

ثانيهم: الذمي، يهوديا كان أو نصرانيا، وهو الكافر الذي يعيش في بلاد المسلمين، وقد عُقد معه عقد الذمة، وهؤلاء لهم أحكام أخص من أحكام المعاهدين.

آخرهم: المستأمِن، وهو الكافر الذي يدخل بلاد المسلمين بأمان، كسائح وتاجر، وعامل... إلخ.

وَقَتْلُ المعاهد، أو الذمي، أو المستأمن حرام، وكبيرة من الكبائر، كما قال -تعالى-: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:١٥١].

وهذا النهي يشمل تحريم قتلِ كلِّ نفس حرم الله قتلها إلا بالحق، سواء كانت مؤمنة، أو معاهَدةً، أو ذمية، أو مستأمِنة.

وأخرج البخاري في "صحيحه" (ح ٢٩٣٠) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا**». سواء كان العهد بضرب عقد جزية، أو بهدنة من السلطان، أو بأمان من مسلم.

ولأبي داود أن النبي ﷺ قال: «**أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوِ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

النوع الثاني: الذين يجب قتالهم من الكفار، وهم صنفان:

الأول: الكفار المحاربون، وهؤلاء ليس بيننا وبينهم عهد ولا ذمة ولا أمان، فهؤلاء الذين يُقاتلون، وهم حلال الدم والمال، فإن كانوا من أهل الكتاب أو المجوس قُوتلوا حتى يدخلوا الإسلام أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، دليل ذلك آية القاعدة، وقوله -تعالى-: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة:٢٩]. وقال -تعالى-: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة:٣٦]. فـ "**كافة**" نص في العموم، أي قاتلوهم جميعا.

ولمسلم (ح٤٦١٩) عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِى خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ: «**اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ اغْزُوا وَ لَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلاَ تَمْثُلُوا وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِى عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِى يَجْرِى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِى الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ... الحديثَ**».

الثاني: المرتد عن دين الإسلام، وهذا يجب قتله بإذن ولي الأمر، أو من ينوب عنه، أو قاض من القضاة، ولا يكون ذلك لأحد من عوام الناس.

أما الفتنة في الآية فهي الشرك، وهو أكبر فتنة، والدين في هذا الموضع هو الطاعة والانقياد، **من ذلك قول الأعشى ميمون بن قيس يمدحُ المنذرَ بنَ الأسود**:

هُوَ دَانَ الرِّبَابَ، إِذْ كَرِهُوا الدِّي *** نَ، دِرَاكًا بِغَزْوَةٍ وَصِيَالِ

يعني بقوله: "إذ كرهوا الدين"، إذ كرهوا الطاعة وأَبَوْهَا.

فمعنى الآية:

وقاتلوا المشركين حتى لا يكون شركٌ بالله، كي لا يُعبد أحدٌ من دون الله، فتكونَ العبادةُ والطاعة لله وحده دون مَنْ سواه.

إذا عرفتَ ما سبق من أن النبي ﷺ ظهر على أناس متفرقين في معبوداتهم فأقول لك: دليل عبادة المشركين الشمسَ والقمرَ من دون الله قوله -تعالى-: ﴿ **وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** ﴾ [فُصِّلَت:٣٧].

فمن العرب مَنْ عَبَدَ الزُّهَرَةَ من دون الله، ومنهم عَبَدَ القمرَ والشمس، ومنهم من عبد الشِّعْرَى.

أما الشمس فهي من الأصنام التي تسمى بها بعض العرب، فمنهم من تسمى بعبد شمس، والنسبة إليه "عبشمي"، وذُكِرَ أن بعض بني تميم تعبدت له. وكان له بيت وصنم، وكانت تعبده بنو أُدِّ بْنِ طَابِخَة كلها.

والشمس عند العرب إله مؤنث، وكانوا يسمونها "إِلَاهَةَ" تعظيمًا لها، **كما قالت أمية بنت عُتَيْبَةَ بنِ الحَارِث اليَربوعيّ ترثي أباها وهي أم البنين:**

تَرَوَّحْنَا مِنَ اللَّعْبَاءِ قَصْرًا *** فَأَعْجَلْنَا إِلَاهَةَ أَنْ تَؤوْبَا

أي الشمس، ويدلك على ذلك من تسميتهم الشمس بـ "إِلاهَةَ" أنه غير منصرف، فهو إذن منقول مخصوص بها.

وقد كان بعضُ العرب يعظم وقت طلوع الشمس ووقت غروبها، وقد نهى النبي عن الصلاة في هذين الوقتين مخالفة للمشركين الذين يسجدون لها حينئذ، فقد أخرج مسلم وغيره عن عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه قال: ..... قلت يا نَبِيَّ اللَّهِ أَخْبِرْنِي عَمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ وَأَجْهَلُهُ فقال ﷺ: «**صَلِّ صَلَاةَ الصُّبْحِ ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَتَّى تَرْتَفِعَ فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حِينَ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ**».

وأخرج الشيخان عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَا يَتَحَرَّى أَحَدُكُمْ فَيُصَلِّيَ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَلَا عِنْدَ غُرُوبِهَا**».

ولهما أيضا واللفظ للبخاري من طريق هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِذَا طَلَعَ حَاجِبُ الشَّمْسِ فَدَعُوا الصَّلَاةَ حَتَّى تَبْرُزَ وَإِذَا غَابَ حَاجِبُ الشَّمْسِ فَدَعُوا الصَّلَاةَ حَتَّى تَغِيبَ وَلَا تَحَيَّنُوا بِصَلَاتِكُمْ طُلُوعَ الشَّمْسِ وَلَا غُرُوبَهَا فَإِنَّهَا تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ**».

ولمسلم (ح١٤٤٣) عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيِ الشَّيْطَانِ قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا لاَ يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا**».

والحديث حق على ظاهره؛ فإن الشمس تطلع وتغرب بين قرني الشيطان، وقد جاء شيطان في الحديث نكرةً في رواية، ومعرفةً في رواية أخرى، والمراد به إبليس،

فهو -لعنه الله- ينصب نفسه قائما حتى يحاذي الشمس لتطلع بين قرنيه، فإذا سجد لها المشركون لها وقتئذ سجدوا له أيضا.

وعبادة الشمس أمر موجود من قديم، فقد بُنيت لها المعابد، وصُوِّرَ لها عدة تماثيل، وقُدِّمَ لها القرابين، فعبدها أقوامٌ كثيرون من العرب وغير العرب من الساميين، مثل البابليين والكنعانيين والعبرانيين. وورد في ذلك نصوص في كتب التاريخ والعهد القديم، وكانت تُعرف بـ Beth Shemesh.

وقد كان قوم سبإ يعبدون الشمس من دون الله ويسجدون لها، كما قال هدهد سليمان -عليه السلام- عنها: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل:٢٤].

وقيل: إن الصينيين القدماء كانوا يعتقدون أنه يوجد عشرة شموس فتَيَّةٌ، وكان يلزم أن يذهب كل يوم منها شمسان للعب في السماء، إلى أن قرروا أن تذهب العشرة للعب سويا!، مما جعل الأرض تُصاب بحر شديد، فقررت إحداهن قتلهم جميعا للمحافظة على الأرض والحياة عليها!! فعبدوها!

وكانت عبادة الشمس أمر سائد في مصر القديمة، وقد كان رع يمثل إله الشمس الرئيسي عند القدماء المصريين. **ويقال**: كان رع كل يكافح ضد قوى الفوضى والشر الممثلة في أفعى كبيرة تسمى أبوفيس حتى تستطيع الشمس التي هي (رع) الظهور في الصباح التالي في أعالي السماء. ويعتبر رع إله الشمس، وعندما

تختفي الشمس كل مساء يغير الإله رع طريقة انتقاله، ويركب مركبا مقدسا يعبر به النيل تحت الأرض. ويعبر رع خلال تلك الرحلة اثنتي عشرة بوابة تمثل اثنتي عشرة ساعة هي عدد ساعات الليل (من الخامسة مساء إلى الخامسة صباحا) في العالم التحتي، ولم يزل يقاوم (رع) قوى الفوضى والأخطار التي تقابل مركبه الشمسي. وكانوا يعتقدون أن الإله ست يقوم بمساعدته!! خلال تلك الرحلة؛ حيث يقف على مقدمة المركب ويهدد الأفعى أفوبيس برمحه كي لا تقترب. ولا يزالان على هذا النحو كل ليلة في العالم التحتي حتى يعود رع إلى الظهور من جديد ويلقي بأشعته التي تمنح الحياة على البشر على سطح الأرض!!.

كذلك بعض التجريبيين والفلكيين في عصرنا هذا يعبدون الشمس، ويعتقدون أنها المتحكمة في هذا الكون، وأنَّ الكون كله يسير وفق أمرها وجاذبيتها المزعومة التي لا وجود لها أصلا.

بل منهم من يعبد الجاذبية المزعومة، ويرى أنها التي تتحكم في هذا الكون وتسيره، كما قال الملحد ستيفن هوكنج قبحه الله.

ومنهم من كان يعتقد أن القمر يتصرف مع الله في الكون، كقبيلة كنانة، إذ اتخذوا له صنمًا على صورة عجل، وكانت تميم تتطيـر به إذا كان في الدَّبَرانِ [٢٠]، فإذا

---

[٢٠]- قال المرزوقي: «**وأما الدبران فالكوكب الأحمر الذي على أثر الثريا بين يديه كواكب كثيرة مجتمعة من أدناها إليه كوكبان صغيران يكادان يلتصقان، يقول الأعراب: هما كلباه، والبواقي غنمه**» الأزمنة والأمكنة (ص٨٠) وقيل: غير ذلك.

سافروا في تلك الليلة ظنوها ليلة مشؤومة، **ولذلك قال مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز**: حين خرج عمر من المدينة نظرتُ -أي مزاحم- فإذا القمر في الدبران، فكرهت أن أقول ذلك له، فقلت ألا تنظر إلى القمر ما أحسن استواءه في هذه الليلة، فنظر عمر فإذا هو بالدبران فقال كأنك أردت أن تعلمني أن القمر بالدبران يا مزاحم، **إنا لا نخرج بشمس ولا بقمر ولكنا نخرج بالله الواحد القهار**»[٢١]

فمعنى الآية:

أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله الدالة على وحدانيته، يجريان في فَلَكٍ بإجراء الله إياهما لكم بأمره وقدرته، تسخيرا منه لعباده ولمنافعهم، ولا يستطيعان لأحد نفعا أو ضرًّا، فلا تسجدوا للشمس ولا للقمر؛ لأنهما مخلوقان من مخلوقات الباري جل وعلا، إذا أراد الله أن يذهب بهما ويطمس نورهما لفعل سبحانه، واسجدوا له وحده دون من سواه؛ إذ هو وحده الذي يُفرد بالعبادة جل شأنه.

وقوله: «وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ» الضمير في "خلقهن" بالجمع يعود على "الليل والنهار والشمس والقمر"، وأنث لأنها ليست من جنس بني آدم.

وقد كانت طوائف من العرب يعبدون النجوم، فمنهم من عبد الشِّعْرَى، وقد بين الله ذلك فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ [النجم:٤٩]، أي إن كنتم تعبدون

وقال: «وسمي الدبران لأنه دبر الثريا أي صار خلفها .... ونوؤها ثلاث ليال وقيل: بل هو ليلة وهو غير محمود» (ص١٢٩).

[٢١]- أخرجه أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم في سيرة عمر بن عبد العزيز (ص٣٢).

الشعرى فإن الله -جل وعلا- هو رب الشعرى، ورب كل شيء، فهو الذي ينبغي أن يُعبد وحده سبحانه.

والشعرى نجم كانت خزاعة تعبده من دون الله، وهو كوكب مضيء يطلع بعد الجوزاء، وطلوعه في شدة الحر، والمقصود بها الشعرى العبور، **قال ذو الرمة**:

إِذَا أَمْسَتِ الشِّعْرَى الْعَبُورُ كَأَنَّهَا *** مَهَاةٌ عَلَتْ مِنْ رَمْلِ يَبْـرِينَ رَابِيَا

وقال الشماخ:

لِلَيْلَـى بِالفَحِيمِ ضَوْءَ نَـارٍ ** يَلُوحُ كَأَنَّـهُ الشِّعْرَى العَبُورُ

وقال بعضهم:

مضَى أيلولُ، وارْتفَعَ الحرورُ *** وأخْبَتْ نارَها الشعرى العَبورُ

أما الشعْرَى الغُمَيْصَاء فليس لها ضوءُ العَبُور، ولذلك سميت غميصاء.

أخرج الطبري عن ابن عباس في قوله -تعالى-: **(وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى)** قال: هو الكوكب الذي يدعى الشعرى.

وعن مجاهد أنه قال: الكوكب الذي خَلْف الجوزاء، كانوا يعبدونه في الجاهلية.

ثم قال الشيخ:

ودليل الملائكة قوله -تعالى-: ﴿ **وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا** ﴾ [آل عمران:٨٠].

الضمير في يأمركم عائد على بَشَـرٍ في قوله -تعالى-: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

قيل: المراد بالبشر عيسى؛ إذ كان نصارى نجران يزعمون أنه أمرهم أن يتخذوه ربا، **وقيل**: المراد به النبي محمد ﷺ، فقد رُوي أنه اجتمعت الأحبار من يهود ونصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: فقالوا أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟ قال: فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له: الرئيس: أو ذاك تريد منا يا محمد وإليه تدعو وكما قال. فقال رسول الله ﷺ: معاذ الله أن نعبد غيرَ الله أو نأمر بعبادة غيره، ما بذلك بعثني ولا أمرني، فأنزل الله -تعالى- في ذلك من قولهما: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٨٠]. أخرج ذلك ابن أبي حاتم وابن جرير وغيرهما سببا للآية. **وقيل**: يُراد به كل موصوف بهذه الصفات السابق ذكرها، من ذلك نبي الله عيسى ونبي الله محمد صلى الله عليهما وسلم.

ويأمرَكم منصوب لأنه معطوف على "**يؤتيَه**" المنصوب بأن في الآية السابقة، وبذا قرأ عاصم وحمزة وابن عامر ويعقوب وخلف، وقرأ الباقون بالرفع على القطع.

وقوله: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ استفهام إنكاري لا يمكن وقوعه، **ومعناه**: إذا كان لا ينبغي لنبي من الأنبياء أن يدعو لغير عبادة الله، أيأمركم بالكفر بعد أن انقدتم له، فهذا لا يكون، ومن ظن أن نبيا من الأنبياء دعا لعبادة غير الله فما أشد كفره بالله.

فما كان لنبي من الأنبياء أن يدعو لعبادة غير الله ولا ينبغي له أصلا، فالتوحيد هو دعوة جميع الأنبياء والرسل، وما من نبي إلا ودعا قومه للتوحيد، كما قال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]، وقال -تعالى-: ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزُّخرُف:٤٥].

وقال -تعالى-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ ثم بَيَّـنَ -سبحانه- أن المشركين الذين كفروا بدعوة الأنبياء تبجحوا ونسبوا لله الولد والشريك، وجعلوا الملائكة بنات الله، تعالى الله عما يقولون، قال -تعالى-: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنبياء].

فبين -سبحانه- أن الملائكة عباد لله مكرمون، ليس لهم من الأمر شيء، بل هم منقادون مطيعون للرب جل وعلا، يعملون بأمره، ولا يسبقونه بالقول، ولا ينبغي البتة لأحد منهم أن يقول إني إله من دون الله، ولذلك لَمَّا كفر إبليس، ودعا إلى عبادة نفسه لعنه الله، وكان مصيره جهنم وبئس المصير.

فمن العرب من كان يعبد الملائكة، ومنهم من كان ينصب لها أنصابا وتماثيل ويعبدونها، قال الله -تعالى-: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ:]. أي كان المشركون يطيعون الجن في عبادة الملائكة، وطاعة الشيطان عبادة له؛ لأن العبادة هي الطاعة. وقال -سبحانه-: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزُّخرُف].

فقد كان المشركون يعتقدون أن الملائكة بنات الله زورا وكذبا على الله، وتنقصا من قدر الملائكة الذين هم عباد الرحمن، فأنزلوهم منزلة الشريك مع الله لأنهم بناته، فلهم قدر عند هؤلاء المشركين من الربوبية والإلهية؛ إذ كانوا ينصبون الأصنام على صورة الملائكة التي يعتقدون أنها بنات الله ثم يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى ومنزلة، ثم تبجحوا بأنه لو شاء الله ما عبدوا الملائكة، فبين الله -سبحانه- بطلان قولهم، وبطلانَ احتجاجِهم بالقَدَرِ والمشيئة بأنهم ليس لهم علم بما يقولون، وأنهم يظنون بالله ظن السوء، كاذبون في دعواهم.

ثم قال:

ودليل الأنبياء قوله -تعالى-: ﴿**وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ**﴾ [المائدة:١١٦].

فقد عبدت النصارى عيسى بن مريم، وجعلوه ابنا لله، وعبدوا أمه مريم من دون الله، عبدوه كما عُبِدَ كرشنا في الهندوسية على أنه أفاتار، الذي هو ابن للإله، ويسمونه فيشنو، الذي يجعلونه الإله الأعلى في الفيشنوية، وعند طوائف أخرى هو مصدر كل الأفاتارت بما في ذلك فيشنو.

والله -سبحانه- يعلم أن المسيح لم يأمر بعبادة نفسه، ولا ينبغي أصلا له أن يقول ذلك، لكنه -سبحانه- يريد أن يوبخ هؤلاء النصارى المشركين يوم القيامة، فيسأل الله عيسى يوم القيامة: "**أأنت قلت للناس اتخذوني وإمي إلهين من دون الله**" فيقول عيسى -عليه السلام- مجيبا ربَّهُ ومنزها له عن هذا القول الشنيع: "**سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق**". أي لا ينبغي لي أن أقول: اعبدوني

بل يشهد المسيح على النصارى يوم القيامة مبينا أنهم على ضلال لعبادتهم إياه، كما أخبر -سبحانه-: ﴿**وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا**﴾ [النساء:١٥٩].

فيوم القيامة يكون المسيح على أهل الكتاب شهيدا بتصديق من صدقه منهم، وتكذيب من كذَّبه منهم، وببطلان ما هم عليه، كعبادةِ غير الله، وكفرٍ بالنبي محمد ﷺ، وجعله ابنا لله، وشريكا معه، وقولهم إن الله ثالث ثلاثة، وإن الله هو المسيح ابن مريم، وقتلِهم الأنبياء، وغيرِ ذلك، فيزداد المشركون حينئذ حسرة وألما، ويقولون يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا، لكن هيهات هيهات، فأنى لهم ذلك.

ثم قال:

ودليل الصالحين، أي ودليل عبادة المشركين للصالحين قوله -تعالى-: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء:٥٧].

«**أولئك**»: مبتدأ، يُشار به إلى الأنبياء والصالحين الذين عُبدوا من دون الله، خبره جملة «**يبتغون**»، و «**الذين**»: اسم موصول في محل رفع بدل من اسم الإشارة أو عطف بيان، «**يدعون**»: فعل مضارع مرفوع، ورفعه ثبوت النون، **والواو**: ضمير مبني على السكون في محل رفع فاعل يعود على المشركين الذين عبدوا الأنبياءَ والصالحين من دون الله، وعائد الموصول هو المفعول به المضمر، تقديره "**هم**"، أو مفعولان إذا قدرنا "يدعون" متعديا لمفعولين، أي يدعونهم آلهةً من دون الله، وجملة "**يدعون**" صلة الموصول لا محل لها، «**أَيّهمْ**»: بدل من فاعل يبتغون، أي يبتغيها ويطلبها الذي هو أقرب، فكيف بمن دونه؟!

فمعنى الآية:

أولئك الذين يدعونهم المشركون آلهةً من دون الله من الملائكة والأنبياء وصالحي الجن والإنس هم عبيدٌ لله جل وعلا ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ لأنهم أهلُ إيمان به يتقربون إلى الله بالأعمال الصالحة ويطلبون منه وحده ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أي أيهم بصالح عمله واجتهادِهِ في عبادته أقربُ عند الله زُلفى ﴿وَيَرْجُونَ﴾ بأفعالهم الصالحة تلك ﴿رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ فكيف تدعونهم آلهة وهم عبيد لله.

أخرج ابن أبي حاتم في "التفسير" (ح١٣٣١٨) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في الآية قَالَ: «**كَانَ أَهْلُ الشرك يعبدون الملائكة والمسيح وعزيرًا**».

واعلم -رحمك الله- أن أصل الشركِ هو الغُلُوُّ في الصالحين، واتخاذُهُمْ شُفَعَاءَ ووسائطَ عند الله، دليل ذلك ما أخرجه البخاري (ح ٤٥٣٩) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قال: "صَارَتْ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ"، يريدُ ابنُ عباسٍ آلهةَ قومِ نوح الواردةَ في قولِهِ -تعالى-: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣]. قال: "**هي أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ**".

وقد عبدت اليهود عزيرا، وقد كان رجلا صالحا، كما قال -تعالى-: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣٠]. فقد أخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ مِنْ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ بَرٌّ أَوْ فَاجِرٌ وَغُبَّرَاتُ أَهْلِ الْكِتَابِ فَيُدْعَى الْيَهُودُ فَيُقَالُ لَهُمْ مَنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللَّهِ فَيُقَالُ لَهُمْ كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ ...... الحديثَ**».

وفي هذا أبلغ رد على غلاة الصوفية الذين يدعون الجيلاني والحسين رضي الله عنه، وفاطمةَ رضي الله عنها، وغيرَهم من الصالحين من دون الله، فإذا دعاهم أهل التوحيد لعبادة الله وحده قالوا: **نحن نتقرب بالأنبياء والصالحين لله، ولسنا كالمشركين الذين يعبدون الأصنام!! فيقال لهم**: إن النبي ﷺ ظهر على أناس متفرقين في عبادتهم.... منهم من يعبد الصالحين ويتخذهم شفعاء ووسائط عند الله، وهو الذي تفعلونه ثم تتبجحون بأنه ليس بشرك.

فإذا كان الضُّـرُ النازلُ برسول الله ﷺ لا يستطيع أن يدفعه عن نفسه وهو سيد الناس، كما قال -تعالى-: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس:١٠٧]، فكيف يستطيع غيره ممن دونه أن يدفع الضر عن غيره؟!!

فإذا كانت عبادة الصالحين شركا فكيف باليهود والنصارى الذين يتخذون الأحبار والرهبان أربابا من دون الله يحلون لهم الحرام، ويحرمون عليهم الحلال، بل كيف بمن يدعي الإسلام ثم يتحاكم إلى الطاغوت.

بل كيف بغلاة الصوفية الذين يدعون بعض الفساق من دون الله، ثم يسمونهم أولياء كذبا وزورا، كالبدوي، والشعراني، والحلاج وغيرهم ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ [الإسراء:٥٦]. فإلى الله المشتكى، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ثم قال:

«**ودليل**» عبادة المشركين «**للأشجار والأحجار قوله -تعالى-:** ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠﴾ [النجم].

فاللات: صنم بالطائف لثقيف، كانوا يعبدونها.

والعزى: شجرة ببطن نَخْلَةَ، وهو مَكَانٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، كانت قريش تعظمها وتعبدها.

ومناة الثالثة الأخرى: بيت فيه صنم بِالْمُشَلَّلِ عِنْدَ قُدَيْدٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ خُزَاعَةُ وَالْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا يُعَظِّمُونَهَا وَيُهِلُّونَ مِنْهَا لِلْحَجِّ إِلَى الْكَعْبَةِ.

والأخرى توكيدٌ للثالثة؛ **وقيل**: الوضيعة، فهي أوضعها، **وقيل**: أرفعها قدرا عند العرب اللات ثم العزى ثم مناة على الترتيب المذكور في الآية، **وقيل**: مناة ثم اللات ثم العزى.

وقد كان المشركون يلحدون في أسماء الله فيشتقون من أسمائه -جل وعلا- أسماء لآلهتهم الباطلة، من ذلك أنهم سموا اللات من "**الإله**"، والعزى من "**العزيز**"، ومناة من "**المنان**"، **وقيل مناة**: مِنْ مَنَى اللَّهُ الشَّيْءَ إِذَا قَدَّرَهُ، **وقيل**: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُرِيقُونَ عِنْدَهُ الدِّمَاءَ يَتَقَرَّبُونَ بِذَلِكَ إِلَيْهِ. ثم زعمت العرب أنها بنات الله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، ولذلك قال الله -تعالى- بعدها: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ أي أفرأيتم ما تعبدون من دون الله مما لا ينفعكم ولا يضركم كاللات والعزى ومناة مما سميتموه من أسماء الله إلحادا، ونسبتموه إليه زورا وكذبا وبهتانا من أنها بنات الله، أتنسبون لأنفسكم الذكر، وتنسبون لله -جل وعلا- الأنثى؟ وتكرهونها ولا ترضونها لأنفسكم، تلك إذن قسمة جائرة ظالمة.

قال ابن كثير -رحمه الله-:

«يَقُولُ تَعَالَى مُقَرِّعًا لِلْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمُ الأصنام والأنداد والأوثان، واتخاذهم البيوت لها مُضَاهَاةً لِلْكَعْبَةِ الَّتِي بَنَاهَا خَلِيلُ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ) وَكَانَتِ اللَّاتُ صَخْرَةً بَيْضَاءَ مَنْقُوشَةً وَعَلَيْهَا بَيْتٌ بِالطَّائِفِ، لَهُ أَسْتَارٌ وَسَدَنَةٌ وَحَوْلَهُ فِنَاءٌ مُعَظَّمٌ عِنْدَ أَهْلِ الطَّائِفِ، وَهُمْ ثَقِيفٌ وَمَنْ تَابَعَهَا، يَفْتَخِرُونَ بِهَا عَلَى مَنْ عَدَاهُمْ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ بَعْدَ قُرَيْشٍ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَكَانُوا

قَدِ اشْتَقُّوا اسْمَهَا مِنَ اسم الله فَقَالُوا اللَّاتُ، يَعْنُونَ مُؤَنَّثَةً مِنْهُ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَحُكِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ أَنَّهُمْ قَرَءُوا اللَّاتَّ بِتَشْدِيدِ التَّاءِ وَفَسَّرُوهُ بِأَنَّهُ كَانَ رَجُلًا يَلُتُّ لِلْحَجِيجِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ السَّوِيقَ، فَلَمَّا مَاتَ عَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ فَعَبَدُوهُ.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ هُوَ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا أَبُو الْأَشْهَبِ، حدثنا أبو الْجَوْزَاءِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- فِي قَوْلِهِ: اللَّاتَ وَالْعُزَّى قَالَ: كَانَ اللَّاتُّ رَجُلًا يَلُتُّ السَّوِيقَ سَوِيقَ الْحَاجِّ.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَكَذَا الْعُزَّى مِنَ الْعَزِيزِ، وَكَانَتْ شَجَرَةً عَلَيْهَا بِنَاءٌ وأستار بنخلة، وهي بين مكة والطائف، وكانت قُرَيْشٌ يُعَظِّمُونَهَا كَمَا قَالَ أَبُو سُفْيَانَ يَوْمَ أُحُدٍ: "**لَنَا الْعُزَّى وَلَا عَزَّى لَكُمْ**"، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**قُولُوا اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ**».

وَأَمَّا مَنَاةُ فَكَانَتْ بِالْمُشَلَّلِ عِنْدَ قُدَيْدٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ خُزَاعَةُ وَالْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا يُعَظِّمُونَهَا وَيُهِلُّونَ مِنْهَا لِلْحَجِّ إِلَى الْكَعْبَةِ. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ نَحْوَهُ.... انتهى كلام ابن كثير رحمه الله تعالى.

وقال القرطبي:

" كَانَتِ اللَّات لِثَقِيفَ، والْعُزَّى لِقُرَيْشٍ وَبَنِي كِنَانَةَ، ومَناة لِبَنِي هِلَالٍ. وَقَالَ هِشَامٌ: فَكَانَتْ مَنَاة لِهُذَيْلٍ وَخُزَاعَةَ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

فَهَدَمَهَا عَامَ الْفَتْحِ. ثُمَّ اتَّخَذُوا اللَّاتَ بِالطَّائِفِ، وَهِيَ أَحْدَثُ مِنْ مَنَاةَ وَكَانَتْ صَخْرَةً مُرَبَّعَةً، وَكَانَ سَدَنَتُهَا مِنْ ثَقِيفٍ، وَكَانُوا قَدْ بَنَوْا عَلَيْهَا بِنَاءً، فَكَانَتْ قُرَيْشٌ وَجَمِيعُ الْعَرَبِ تُعَظِّمُهَا. وَبِهَا كَانَتِ الْعَرَبُ تُسَمِّي زَيْدَ اللَّاتِ وَتَيْمَ اللَّاتِ. وَكَانَتْ فِي مَوْضِعِ مَنَارَةِ مَسْجِدِ الطَّائِفِ الْيُسْرَى، فَلَمْ تَزَلْ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ أَسْلَمَتْ ثَقِيفُ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ فَهَدَمَهَا وَحَرَقَهَا بِالنَّارِ. ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعُزَّى وَهِيَ أَحْدَثُ مِنَ اللَّاتَ، اتَّخَذَهَا ظَالِمُ بْنُ أَسْعَدَ، وَكَانَتْ بِوَادِي نَخْلَةَ الشَّامِيَّةِ فَوْقَ ذَاتِ عِرْقٍ، فَبَنَوْا عَلَيْهَا بَيْتًا وَكَانُوا يَسْمَعُونَ مِنْهَا الصَّوْتَ. قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَحَدَّثَنِي أَبِي عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَتِ الْعُزَّى شَيْطَانَةً تَأْتِي ثَلَاثَ سَمُرَاتٍ بِبَطْنِ نَخْلَةَ".

ثم قال:

«**وحديثُ أبي واقد الليثي -رضي الله عنه-**» حديث معطوف على "قولُه تعالى"، أي ودليلُ عبادة المشركين للأشجار أيضا حديثُ أبي واقد الليثي قال: «**خرجنا مع النبي ﷺ إلي حُنَيْنٍ ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سِدْرَةٌ يعكفون عندها وينوطون بها أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ... الحديث**». الحديث بهذا اللفظ أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (ح ٣٢١٥)، وأبو نعيم في "معرفة الصحابة" (ح١٨٨٦).

وأخرجه الطيالسي في "المسند" (ح١٤٤٣)، والإمام أحمد في "المسند" (ح٢١٨٩٧)، والحميدي في "المسند" (ح٨٤٨)، وابن أبي شيبة في "المصنف" (ح٣٨٥٣٠)، والترمذي في "جامعه" (ح٢٣٣٥) وغيرهم عن سِنَانِ بن أَبِي سِنَانٍ الدُّؤَلِيِّ عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ: «**أَنَّهُمْ خَرَجُوا عَنْ مَكَّةَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ، قَالَ: وَكَانَ لِلْكُفَّارِ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ**

عِنْدَهَا، وَيُعَلِّقُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، قَالَ: فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ خَضْرَاءَ عَظِيمَةٍ، قَالَ: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ: اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةً قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ}».

السدرة: شجرة عظيمة، والسِّدْرُ شجر النَّبِقِ، واحدتها سِدْرَة، وجمعها سِدْراتٌ وسِدِراتٌ وسِدَرٌ وسُدورٌ، **قال الشاعر:**

عواقِبُ سَيْل تَحتَ أفنان سِدرَةٍ *** حمي ماءَها أن يُوردَ الفُرُطان

وقال الآخر:

أَتَتْ سِدْرَةً منْ سِدْرِ حِرْمِلَ فابْتَنَتْ *** بِهِ بَيْتَهَا فَلا تُحاذِرُ سَامِيَا

وذَاتُ أَنْوَاطٍ اسمها، وأنواط جَمْعُ نَوْطٍ، وَهُوَ مَصْدَرُ نَاطَهُ أَيْ عَلَّقَهُ.

ففي الحديث أن بعض الصحابة ممن كان قريبَ عهد بكفر -أي أسلم قريبا- قال للنبي ﷺ: "**اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ**" أي اجعل لنا نحن أيضا شجرةً نعلق عليها أسلحتنا كما يفعل المشركون، **فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةً قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ}»**. أي شابه قولكم قول قوم موسى لموسى في طلب "**اجعل لنا كما لهم**".

ووجه الشاهد من الحديث قوله:

"**وللمشركين سِدْرَةٌ يعكفون عندها وينوطون بها أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ**" يعني أن المشركين كانوا يعظمون تلك الشجرة، ويلازمونها، ويعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم رجاء حصول البركة منها في السلاح والمتاع، فأراد

بعض الصحابة -رضوان الله عليهم- أن يتخذ ذات أنواط يتبركون بها، لا ليعبدوها، فإنهم قد أسلموا، وآمنوا، وعلموا أن عبادة غير الله باطلة شرعا وعقلا، لكنهم أرادوا التبرك بها، فتعجب النبي ﷺ من قولهم، وعظمه، وبين أنه شابه قول قوم موسى لموسى "**اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ**"، فدل ذلك على أن التبرك بالأشجار شرك.

وفي الحديث دلالة أيضا على أن الجهل سببٌ من أسباب الوقوع في الشرك، لقوله: «**إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**». إذ قد خفي ذلك على بعض الصحابة لأنهم قريبو عهد بكفر، ولذلك هم معذرون في مقالتهم هذه.

فوجه الدلالة من الآية والحديث:

أن اللات صنم من حجارة لرجل، عبده المشركون وعكفوا على قبره، ثم جعلوا له صنما من حجارة فعبدوه، ومناة: صنم، والعزى: شجرة، وذات أنواط شجرة عظيمة كان يعظمها المشركون، فما كان يفعله المشركون عند هذه الآلهة الباطلة وعند غيرها هو بعينه ما يفعله المشركون في زماننا عند الأشجار والأحجار والقبور. فجمعت الآية دليلي عبادة الأحجار والأشجار، وانفرد الحديث بالأشجار.

وقد كان بعض الناس على عهد عمر -رضي الله عنه- يأتون الشجرة التي يقال لها شجرة الرضوان فيصلون عندها ويعظمونها، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فأوعدهم فيها وأمر بها فقطعت، كما ذكر ذلك غير واحد من أهل السير كابن سعد في "طبقاته" (٢/١٠٠)، والفاكهي في "أخبار مكة" (ح ٢٨١٦)، **وقيل**: أزالتها السيول.

قال ابن القيم في "إغاثة اللهفان" (١/٢٠٥):

"فإذا كان اتخاذ هذه الشجرة لتعليق الأسلحة والعكوف حولها اتخاذ إله مع الله تعالى، مع أنهم لا يعبدونها، ولا يسألونها. فما الظن بالعكوف حول القبر، والدعاء به ودعائه، والدعاء عنده؟ فأي نسبة للفتنة بشجرة إلى الفتنة بالقبر؟ لو كان أهل الشرك والبدعة يعلمون.

قال بعض أهل العلم من أصحاب مالك: فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس، ويعظمونها، ويرجون البرء والشفاء من قِبلها، ويضربون بها المسامير والخرق، فهي ذات أنواط، فاقطعوها.

ومن له خبرة بما بعث الله تعالى به رسوله، وبما عليه أهل الشرك والبدع اليوم فى هذا الباب وغيره، علم أن بين السلف وبين هؤلاء الخلوف من البعد أبعد مما بين المشرق والمغرب، وأنهم على شيء والسلف على شيء، **كما قيل**:

سَارَتْ مُشَرِّقَةً وَسِرْتُ مُغَرِّبًا *** شَتَّانَ بَيْنَ مُشَرِّقٍ وَمُغَرِّبِ

والأمر والله أعظم مما ذكرنا".

وفي الحديث فوائد كثيرة لا يسعها هذا الشرح المختصر.

ومن التبرك الممنوع أيضا التبرك بالحجر الأسود، فلا يتبرك به ولا بحجارة الكعبة، وإنما يُتعبد إلى الله -تعالى- بتقبيله ومسحه كما فعل رسول الله ﷺ، فقد أخرج البخاري في "صحيحه" (ح١٤٩٤) عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ جَاءَ إِلَى الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ فَقَبَّلَهُ فَقَالَ: «**إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ**».

خلاصة القاعدة الثالثة:

١- أن المشركين لم يكونوا يعبدون الأصنام فقط، بل تفرقوا في معبوداتهم، فمنهم مَنْ عَبَدَ الملائكةَ، ومنهم مَنْ عَبَدَ الأنبياءَ والصالحين، ومنهم مَنْ عَبَدَ الأشجارَ والأحجارَ، ومنهم مَنْ عَبَدَ الشمسَ والقمرَ والنجومَ، بل منهم من عَبَدَ ذلك كله، أو جمع بين أكثر من معبود، فعلوا ذلك لغرض واحد، ومقصد واحد، وهو أن يتقربوا بها إلى الله، وأن تشفع لهم عند الله.

فكل ما يُدعى من دون الله فهو باطل، قال -تعالى-: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [لقمان:٣٠].

فمن دعا ملكا، أو نبيا، أو رسولا، أو صالحا، أو فاسقا، أو جنيا، أو صنما، أو حجرا، أو شجرا، أو كوكبا، أو غير ذلك فهو مشرك بالله، ولا ينفعه ما دعا من دون الله ولا يملك له شيئا، قال -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الأعراف:١٩٤]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف:١٩٧]، وقال: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف:٤]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣].

٢- أن النبي ﷺ بعث في قوم متفرقين في معبوداتهم، وقد قاتلهم جميعا ولم يفرق بين من عبد الصنم والحجر والشجر والشمس والقمر، وبين من عبد الملائكة والأنبياء الصالحين من الإنس والجن.

٣- المشركون لم يعبدوا الأشجار والأحجار إلا لمقصد كما بيناه، ووقوع العبادة لهذه الجمادات هو بتزيين الشيطان وأمره لهم بذلك، بل حقيقة عبادة غير الله، وعبادةِ هذه الجمادات هو عبادة الشيطان، وكثيرا ما كان يتمثل شيطانٌ في هذه الجمادات، بل كان بعضها يتكلم بصوت مسموع. ونظير ذلك ما يخرج عند قبور بعض الفسقة من أصوات يسمعها عباد تلك القبور هي في حقيقة الأمر من أصوات الشياطين.

القاعدة الرابعة:

«مشركو زماننا أغلظُ شِركًا من الأولين من وجه»

أنَّ مشركي زماننا أغلظُ شِرْكًا من الأولين؛ لأن الأولين يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة، ومشركو زماننا شركهم دائمًا في الرخاء والشدة، والدليل قوله -تعالى-: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٥].

والله سبحانه أعلم، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الشرح:

أراد الشيخ -رحمه الله- أن يبين في هذه القاعدة أن المشركين في الأزمان المتأخرة أغلظ شركا من المشركين الأولين من وجه، أو من بعض الوجوه، لا من كل وجه، وهو أن المشركين المتأخرين أكثرهم شركهم دائم في الرخاء والشدة، بل بعضهم يشرك بالله في الشدة أكثر من شركه في الرخاء، أما الأولون فكانوا يشركون في الرخاء ويلجأون إلى الله وحده في الشدة.

أما حال المشركين الأولين من أنهم كانوا يخصلون الدعاء لله وحده في الشدة فدليله قوله -تعالى-: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ ﴾ أي المشركون ﴿فِي ٱلْفُلْكِ ﴾ في السفينة وخافوا الهلاك من ركوب البحر ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ أخلصوا الدعاء

لله وحده، ولم يستغيثوا حينئذ بآلهتهم وأندادهم؛ لعلمهم أنه لا ينجيهم مما هم فيه من شدة وكرب إلا الإله الحق وحده ﴿فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ به بعد أن كانوا يخلصون له وحده الدعاء، فصاروا يشركون به في الرخاء، فلعمري لماذا لم يخلصوا في الرخاء والشدة؟!

قال البغوي في "تفسيره" (٦/٢٥٥):

"قَالَ عِكْرِمَةُ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا رَكِبُوا الْبَحْرَ حَمَلُوا مَعَهُمُ الْأَصْنَامَ فَإِذَا اشْتَدَّتْ بِهِمُ الرِّيحُ أَلْقَوْهَا فِي الْبَحْرِ وقالوا: يا رب يا رب".

أما كثير من المتأخرين من عباد الموتى والقبور فإذا ركبوا في الفلك دعوا الولي الفلاني؛ لأنهم يعتقدون أنه يتصرف في البحر والبر، **بل يقولون**: السيد البدوي المهاب الذي إذا دُعيَ في البر والبحر أجاب!! نسأل الله السلامة والنجاة وحسن الختام.

ومن الأدلة أيضا قوله -تعالى-: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ﴾ [يونس].

وقوله -تعالى-: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [لقمان:٣٢].

وقوله -تعالى-: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء].

قال الشيخ محمد الأمين في "أضواء البيان" (٣/١٧١):

" بَيَّنَ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ الْكُفَّارَ إِذَا مَسَّهُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ; أَيِ اشْتَدَّتْ عَلَيْهِمُ الرِّيحُ فَغَشِيَتْهُمْ أَمْوَاجُ الْبَحْرِ كَأَنَّهَا الْجِبَالُ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ لَا خَلَاصَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ - ضَلَّ عَنْهُمْ ; أَيْ غَابَ عَنْ أَذْهَانِهِمْ وَخَوَاطِرِهِمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كُلُّ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، فَلَا يَدْعُونَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ إِلَّا اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا وَحْدَهُ، لِعِلْمِهِمْ أَنَّهُ لَا يُنْقِذُ مِنْ ذَلِكَ الْكَرْبِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْكُرُوبِ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ جَلَّ وَعَلَا، فَأَخْلَصُوا الْعِبَادَةَ وَالدُّعَاءَ لَهُ وَحْدَهُ فِي ذَلِكَ الْحِينِ الَّذِي أَحَاطَ بِهِمْ فِيهِ هَوْلُ الْبَحْرِ، فَإِذَا نَجَّاهُمُ اللَّهُ وَفَرَّجَ عَنْهُمْ، وَوَصَلُوا الْبَرَّ رَجَعُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا [١٧ \ ٦٧]".

وقال في (٣/١٧٤):

" لَا يَخْفَى عَلَى النَّاظِرِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ اللَّهَ ذَمَّ الْكُفَّارَ وَعَاتَبَهُمْ بِأَنَّهُمْ فِي وَقْتِ الشَّدَائِدِ وَالْأَهْوَالِ خَاصَّةً يُخْلِصُونَ الْعِبَادَةَ لَهُ وَحْدَهُ، وَلَا يَصْرِفُونَ شَيْئًا مِنْ حَقِّهِ لِمَخْلُوقٍ، وَفِي وَقْتِ الْأَمْنِ وَالْعَافِيَةِ يُشْرِكُونَ بِهِ غَيْرَهُ فِي حُقُوقِهِ الْوَاجِبَةِ لَهُ وَحْدَهُ، الَّتِي هِيَ عِبَادَتُهُ وَحْدَهُ فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ، وَيُعْلَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ جَهَلَةِ الْمُتَسَمِّينَ بِاسْمِ الْإِسْلَامِ أَسْوَأُ حَالًا مِنْ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ، فَإِنَّهُمْ إِذَا دَهَمَتْهُمُ الشَّدَائِدُ،

وَغَشِيَتْهُمُ الْأَهْوَالُ وَالْكُرُوبُ الْتَجَئُوا إِلَى غَيْرِ اللَّهِ مِمَّنْ يَعْتَقِدُونَ فِيهِ الصَّلَاحَ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يُخْلِصُ فِيهِ الْكُفَّارُ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا أَوْضَحَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ إِجَابَةَ الْمُضْطَرِّ وَإِنْجَاءَهُ مِنَ الْكَرْبِ مِنْ حُقُوقِهِ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ".

ومن الأدلة أيضا قوله -تعالى-: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزُّمَر:٨].

وأخرج الترمذي (ح٣٨٢٠) وغيره عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأَبِي: «**يَا حُصَيْنُ كَمْ تَعْبُدُ الْيَوْمَ إِلَهًا**». قَالَ أَبِي: **سَبْعَةً؛ سِتًّا فِي الأَرْضِ وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ**. قَالَ: «**فَأَيُّهُمْ تَعُدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ**». قَالَ الَّذِى فِي السَّمَاءِ..... الحديثَ. قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. وَقَدْ رُوِىَ هَذَا الْحَدِيثُ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ.

فحال مشركي زمان الشيخ، ومشركي زماننا لا يخفى على أحد، فكثير منهم شركه دائم لا ينقطع سواء أكان في رخاء أم في شدة، فمن هذا الوجه يكون شرك المتأخرين أعظم وأغلظ.

وكذلك شرك المتأخرين أعظم من أوجه أخر، وهي:

الأول: كثير من المتأخرين يدعون من دون الله مَنْ ثبت فسقُه بيقين، أما الأولون فكانوا يشركون مع الله صالحين كثيرا.

الثاني: المتأخرون يشركون بالله في الربوبية والإلهية كثيرا، بل ادعى بعضهم أن الولي يمكن أن يخلق!!، ويدعون أن من أقطابهم من يتصرف في هذا العالم، أما الأولون فأكثر شركهم في الإلهية.

الثالث: مهما يكن من شرك الأولين فلن يكون كشرك الملاحدة المتأخرين أهل وحدة الوجود.

الرابع: من المتأخرين مَنْ تعبد لبعض المعبودات على سبيل الاستقلال، كبعض عباد القبور، والبقر، والفئران، والنار، وعباد الشيطان، وغيرهم، أما مشركو قريش وغيرهم من المشركين الأولين فكانوا يتقربون بمعبوداتهم إلى الله زلفى كما بيناه في القاعدة الثانية.

الخامس: الأولون كانوا يقرون بأنهم يعبدون معبوداتهم لتقربهم إلى الله، ويسمون ذلك عبادة، ويعادون الأنبياء والرسل، أما متأخرو المشركين فينسبون شركهم للشرع الحنيف، وهذه مصيبة عظمى، بل يدعون أن ما هم عليه من شرك هو دين الأنبياء، تعالى الله عما يقولون.

ويمكن للمتأمل اللبيب أن يجد عند متأخري المشركين من الكفريات غيرَ ما ذكرنا يفوق ما كان عليه الأولون.

إذا تقرر ذلك: فاعلم أن هؤلاء المتأخرين كالأولين في وجوب مقاتلهم حتى لا يكون فتنة ويكون الدين كله لله.

تنبيه:

لا يُطلق القول بأن شرك المتأخرين أعظم من شرك الأولين، نعم المتأخرون شركهم دائم كما سبق بيانه، وهو أعظم من شرك الأولين من الوجوه التي سبق بيانها، لكن الأولون شركهم أعظم من أوجه أخر، من ذلك أنهم:

١- كذبوا الأنبياء والرسل بعد أن رأوهم عيانا، والمتأخرون أكثرهم يؤمنون بالأنبياء والرسل.

٢- أنكروا البعث، وكذبوا بالحساب والمعاد، والجنة والنار، وأكثر المتأخرين لا ينكرون ذلك، بل يقرونه.

٣- أصروا على عبادة غير الله بعد أن رأوا المعجزات الإلهية، والآيات الواضحة، والحجج الباهرة، والبراهين الساطعة، والمتأخرون لم يروا شيئا من ذلك.

٤- لم يكن عند المتقدمين من الشبه التي تمنعهم من الإيمان مثلُ ما عند المتأخرين، فقد وُجِدَ في الأزمان المتأخرة لا سيما زماننا دعاةُ ضلالة، يزينون الشرك للعوام، ويدعون الناس إليه، ويقعدون له، بل يكتبون فيه الكتب، ويلقون فيه المحاضرات، يموهون على الناس ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، فاتبعهم كثير من جهال المسلمين لذلك، ووقعوا في الشرك بجهلهم.

ثم ختم الشيخ -رحمه الله- قواعده الأربع قائلا: «**والله سبحانه أعلم وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم**» والحمد لله رب العالمين.